

ثروة مناخية

حكايات عن النساء و الغذاء



ثروة مناخية
حكايات عن الغذاء والنساء



نسخة مجانية ليست للبيع

ثرثرة مناخية
حكايات عن الغذاء والنساء



نشر من قبل مؤسسة فريدرش إيبيرت (مكتب مصر)
حقوق الطبع: © 2026 محفوظة لمؤسسة فريدرش إيبيرت جميع الحقوق محفوظة
تمت الطباعة بجمهورية مصر العربية أصدر من قبل مؤسسة فريدرش إيبيرت مكتب مصر
هذا الكتاب لا يعبر عن رأى مؤسسة فريدرش إيبيرت ويتحمل
المؤلفون كامل المسؤولية عن محتوى الكتاب

تحرير وتقديم: هاجر هشام
فريق عمل الورشة: إيمان عماد الدين، رجائي موسى، نوران المرصفي، وهند سالم
فريق التنسيق والمتابعة: صفاء يوسف ونرمين مجدي.
فريق التصوير والتوثيق: ندى أحمد و ماجد مكرم
فريق الخبراء: الدكتورة فاطمة أحمد، المحررة هاجر هشام،
الباحثة ياسمين حسين، والدكتورة ياسمين معتره

المشاركات: آلاء كليب، إيمان عماد الدين، جنة عادل، حنين شاهين، رانيا الصاوي، رنا
هاني، سارة الغباشي، مرام محبوب، مروة ممدوح، منة الله صلاح، منى محبوب
رسوم: محمود رفعت
الإخراج الفني والتنسيق: ياسمين شطا

العالمة التجارية و شعار مؤسسة فريدرش إيبيرت (مكتب مصر)
Friedrich-Ebert-Stiftung e.V. مملوكة من قبل:
وتستخدم بموجب ترخيص من قبل مالك العالمة التجارية.
نسخة مجانية الطبعة الاولي 2026

الترقيم الدولي: 9-84-6950-977-978
رقم الإيداع: 2026/8042

عن مؤسسة فريدرش إيبيرت في مصر

من أهداف مؤسسة فريدرش إيبيرت العامة والمتمثلة في تعزيز الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، استلهاها ودعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والدعوة إلى حقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين، بدأت المؤسسة عملها في مصر منذ عام 1976 يعمل المكتب منذ ما يقرب من 40 عاما بالتعاون مع شركاء محليين في إطار اتفاقية مبرمة مع الحكومة المصرية.

هذه الاتفاقية تم اعتمادها بقرار جمهوري رقم 1976/139 وموافقة البرلمان المصري. وقد تم تجديد هذه الاتفاقية عام 1988 وتم اعتمادها بقرار جمهوري رقم 1989/244 وموافقة البرلمان المصري. وفي مارس ٢٠١٧ تم التوقيع على بروتوكول إضافي جديد في برلين من قبل الحكومتين المصرية والألمانية، تعديلا على الاتفاقية الثقافية لعام 1959. وقد صدق البرلمان المصري على هذا البروتوكول في يوليو ٢٠١٧ ودخل حيز التنفيذ يوم ٢ نوفمبر بنفس العام بموجب القرار الجمهوري رقم 267/2017

نتعاون مؤسسة فريدرش إيبيرت مع الشركاء المصريين في مجالات:

- البيئة والتنمية المستدامة
- التنمية الاقتصادية والاجتماعية
- تمكين المجتمع المدني
- التعاون والحوار الدولي

مؤسسة فريدرش إيبيرت، مكتب مصر

٤ شارع الصالح أيوب، الزمالك، القاهرة - مصر، 11211

المكان : حارة لم تعد موجودة في مثلث ماسبيرو الوقت: العصر

بعد عام ونصف من العمل الميداني في ما كان يُسمّى مثلث ماسبيرو، جلستُ بجنّة وحذر وسط مجموعة من نساء الحارة، على إحدى المصاطب المقابلة لمنازلهن. للمرة الأولى، لم أجلس لأقوم بإحدى الأنشطة البحثية، ولكنني دعوتني للجلوس معهن وقت العصاري. أخذن في الحكايا عن يومهن: من طبخت ماذا، ومن ذهبت للماء الماء. استطردن في الحديث لساعات.

في البداية، وكما جرت العادة (أنا الباحثة الغربية وهن سكان منطقة البحث)، أخذتُ أدون ما ألاحظ، لكن بعد قليل تركتُ القلم لاندماجي في الحديث، فقد أعطتني السيدات القليل من اللب والترمس كتسالي. في تلك اللحظة شعرت أنني أنتمي؛ لا داعي للملاحظة بعد الآن، يمكنني أن أستمع بصحبتهم. أو ربما أدركتُ انتمائي الحقيقي لاحقاً، عندما عدتُ إلى البيت ووجدتني أحكي واحدة من حكاياتهن، وكأني جزءاً منهن.

دائمًا ما يُنظر إلى حديث النساء على أنه ثروة: حديث طويل بلا جدوى، لا يستحق التدوين أو الإصغاء. لكن ما يوصف بالثروة هو في الحقيقة فعل يومي شديد الأهمية، تنتج فيه معرفة جماعية بين النساء، ويتشكل عبره وعي مشترك بالحياة وتغييراتها. في هذه الأحاديث، تكمن المقاومة والثقافة. وينظر أيضاً للتغيرات المناخية كقضايا علمية بعيدة، كبعد القطب الشمالي عن سواحل البحر المتوسط. لكن المرونة المناخية، وانعدام العدالة المناخية، ليست مفهوماً مجرداً، بل تجربة معاشة؛ تظهر أيضاً في التفاصيل اليومية البسيطة: في الماء الذي يقل، يصعب الوصول إليه أو يتغير طعمه، في الغذاء الذي يعاد التفكير فيه، وفي النزوح الذي يفرض نفسه علينا.

١	تصدير
٣	عن الورشة
٥	تقديم
٥	هوية تصنعها النساء.. المناخ.. والملوخية — هاجر هشام
١٢	الفصل الأول: طرح الغيطان
١٤	أحمال أم ياسين.. في مواجهة الاستثمار الزراعي — مروة ممدوح
٢٣	بين ثلاث غرف.. مقاومة جدتي لقرارات لا تمر عليها منة — الله صلاح
٢٨	رثيفة... اسم لذاكرتي — إيمان عماد الدين
٣٢	صامدات على شط البرلس — رانيا الصاوي
٣٨	الفصل الثاني: رحلات الطعام
٤٠	بين العداد و«طرمة».. أثمان ندفعها من أجل الماء — رنا هاني
٤٨	خرسانة تحاصر جسدي — سارة الغباشي
٥٤	خوارزميات توصيل الطعام بين أمي و«طلبات» — جنة عا
٦٧	الراسمالية.. في سلال رمان العونة — حنين شاهين
٧٤	الفصل الثالث: على السفرة
٧٦	الاعتراب عن مائدة طعامي — منى محجوب
٨٠	كيف سنأكل اليوم! — مرام محجوب محمد
٨٤	مائدة طعام على شرف التخطيط العمراني لأحياء مدينتي — آلاء كليب
٩٣	في الختام شكراً

عن الورشة

الأرشيف اليومي للنساء: البيئة قضية نسوية

في ظل أزمة اجتياح فيروس كورونا، التي أصابت العالم بحالة من الرعب والقلق، تحوّلت البيئة إلى سؤال دائم يلح علينا. فالهواء الذي نتنفسه، والماء الذي نشربه، والطعام الذي نأكله، جميعها أصبحت مصادر قلق وخوف. لقد عرّت الجائحة هشاشة النظام البيئي العالمي، وكشفت أوجه التدمير الناتجة عن الهيمنة الذكورية على أنظمة التعااضد البيئي. ولم يمر هذا الدمار دون أثر بالغ على النساء في المجتمعات المحلية، إذ تتحمل النساء النصيب الأكبر من تداعيات هذه الأزمات المتراكمة.

في مجتمعاتنا المحلية، تتجلى هذه التأثيرات بوضوح في تلوث مياه الشرب، وتراكم القمامة، وتقلص المساحات الخضراء، وأزمات نقص المياه، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، وارتفاع أسعار الغذاء. وهي عوامل تُثقل كاهل الأسر، وتقع تبعاتها اليومية في الغالب على عاتق النساء، لا سيما في ما يتعلق بتدبير الاحتياجات الأساسية.

منهجية الورشة وإنتاج الكتابة

اعتمدت الورشة على منهجية الإثنوغرافيا النسوية في الكتابة عن الأرشيف اليومي للنساء، مع التركيز على التقاطع بين التغيرات المناخية وقضايا الغذاء، والمياه، والنزوح. كما سعت الورشة إلى توسيع النطاق الجغرافي خارج القاهرة، بهدف تقديم صورة أكثر شمولاً وإنصافاً؛ لذلك جرى قبول مشاركات من محافظات مختلفة، أو ممن يعملن على مواقع بحثية في أقاليم متنوعة.

تنوعت خلفيات المشاركات بين صحفيات، وعاملات في المجال التنموي، وباحثات، ومهتمات بالكتابة الإبداعية. وقدّمت المشاركات نماذج كتابة مستندة إلى أبحاث ميدانية يعملن عليها، وتم القبول بناءً على هذه النماذج.

أما عن الإثنوغرافيا، فهي فن الملاحظة والمشاركة اليومية. منهج بحثي نوعي يركز على دراسة الثقافات والمجتمعات من الداخل لفهم كيف يعيش الناس حياتهم وما تعنيه تجاربهم لهم. في النسخة النسوية منها، تصبح أثرية النساء اليومية حكايات ومعرفة، نقرأ منها عن الوعي المشترك في تفاصيل الحياة الصغيرة.

فالحكايا التي تبدأ وقت العصر لا تنتهي أبداً، لأن النساء يتداولنها. تنطلق هذه الحكايات المناخية؛ لا لتحدث عن علوم التغيرات المناخية، بل لتصغي إلى كيف تتأثر النساء يومياً بالتغير، وكيف يداعبنه بلطف وخفة ويتحدثن عنه، وماذا نفهم نحن من خلال الحكايات المتداولة بين النساء. فالأثرية النسوية ليست هامشاً، بل نقطة بداية: من الحكايات، إلى التحليل، إلى المعرفة.

القاهرة، ٢٠٢٥

نوران المرصفي

هوية تصنعها النساء.. المناخ.. والملوخية

هاجر هشام

تعتبر الملوخية من المسلمات في منطقتنا العربية، من حيث المبدأ، لكن تفاصيل طبخها وتقديمها مشهد يختلف من إقليم إلى آخر.

كمصرية، أعرف عن الملوخية أنها تقدم مخروطة مزوجة بثوم مقلي مع كزبره، خلطة نسميها الطشة، أخذت اسمها من الصوت الذي تصدره عندما تمتزج مع سائل الملوخية الأخضر، تكون الطشة ساخنة والموخية أبرد منها، ويجب مزجها قبل التقديم مباشرة.

لست طبّاحة ماهرة، لكنني أعرف تقاليد صناعة الملوخية، لأنها أمر تنافس فيه نساء المحروسة، هناك مكانة ما تحظى بها المرأة العارفة بأصول طبخها، وكأنها عنصر من عناصر تصنع هويتنا الحديثة بشكل أو بآخر، هذا أمر آخر تشترك فيه نساء كل الدول العربية، أيضاً من حيث المبدأ.

بين مصر السودان، إقليم الشام وشمال أفريقيا، كل إقليم يدافع عن طريقته وصنعتة، يقدم نسخته كأنها الملوخية الوحيدة التي يجب أن تذكر وتقدم وتؤكل، في هذا الأمر شاهدت جدالات وشاركت في أخرى، حامية مرة وفكاهية مرات.

يظهر المشهد عتباً أحياناً في عيون شخص من خارج المنطقة، فبالنسبة إليه، الملوخية طبق، أكلة، يستطيع أن يختار الشخص كيفية طهيها وتقديمها، سواء أراد هرسها تحت رحمة مخرطة أو أكلها على حالها دون تقطيع مع ليمون وفلفل حار، أو حتى قضاء ٢٤ ساعة كاملة حتى يحصل على طبق منها، سواء أراد قوامها شوربة لزجة أو أن يثقل قوامها ليشر بنسج الأوراق المخروطة في فمه وهو يغمسها بقطع الخبز.

لكن الأمر من ناحيتنا نحن العرب، والمصريون خاصة، يتعدى أكثر من كونه مجرد طبق، بين مصريون قدماء اعتقدوا أنها عشب سام حتى أجبرهم الهكسوس على أكله، أو تسميتها التي أتت من سمعتها كطعام للبلوك والأمراء، لتسمى بداية «ملوكية» وصولاً إلى نطقنا العربي الحالي «ملوخية». يغفل غير العرب القصص الدرامية التي ربطت نفسها بالملوخية، بداية من ارتباطها بصفاف النيل

أنتجت النصوص عبر ثلاث ورش عمل:

- الورشة الأولى: تمهيد معرفي حول التغيرات المناخية، والعدالة المناخية، ومفهوم الإثنوغرافيا، مع التركيز على الإثنوغرافيا الذاتية.
- الورشة الثانية: العمل على المسودة الأولى للنصوص، حيث تلقت المشاركات ملاحظات تحريرية وتطويراً للأفكار البحثية، إلى جانب تعمق نظري في مفاهيم الإثنوغرافيا.
- الورشة الثالثة: ورشة إنتاجية ركزت على الكتابة، والقراءة، والتغذية الراجعة، للوصول إلى النسخ النهائية من النصوص.

بعد انتهاء الورش، خضعت النصوص لجولتين من التحرير: الأولى قام بها فريق عمل الورشة (رجائي موسى، هند سالم، ونوران المرصفي)، والثانية من قبل محررة ومقدمة الكتاب هاجر هشام.

وحتى انتشارها في ربوع الدول العربية، يأكلونها مع المقلوبة تارة ومع الدجاج أو الأرناب تارة أخرى، يروج لها أحدهم كدواء، ويمعنها آخر بسبب إشاعة أنها تسبب الشهوة الجنسية لدى النساء. من حيث المبدأ، نشترك جميعاً كمصريين، مع جيراننا العرب في التاريخ الجغرافيا واللغة وأنماط كثير من طعامنا، وبشكل مميز ومثير للانتباه، وتشكل الملوخية جزءاً مهماً من هذا التاريخ، واستطاعت بسحر غريب أن تظل جزءاً من حاضرنا.

نشترك فيها أيضاً من حيث المبدأ، أن النساء يتفننن، حتى اللحظة، في إيجاد طرق لطهيها، وإيجاد لمسآتهن الخاصة، منهن من تضيف تشكيلة الخاصة من البهار، ومنهن من تدعي أن الصوت الذي تصنعه هي مع إضافة «الطشة»، وهو ما نسميه بـ«الشهقة»، يصنع نكهة خاصة للطبق التي تقوم على إعدادها. نشترك أيضاً، من حيث المبدأ، في أننا جميعاً، تحت تهديد فقد هذا الطبق المميز، بكل ما يحمله من ثقافة وتاريخ وروابط تجمعنا، ومنطلق لمناساتنا، لصالح التغييرات المناخية التي تفسد الأجواء المثالية لنموه وازدهاره على أرض مصر، وأراضي دول أخرى.

الملوخية نبتة غير معقدة في زراعتها، تحتاج عوامل أساسية وسهلة التواجد في محيطنا العربي، إضافة وسقاية معتدلة، هي نبتة غير معقدة أيضاً في إنتاجها، فالأوراق التي نجمعها تحتاج ٦٠ يوماً فقط للنمو، ومن بعدها يمكن استهلاكها مباشرة، ولمن أراد الحفاظ عليها كمورد غذائي طوال العام، يمكنه تخزينها كورق مجمد أو تنشيفها.

تعد تلك النبتة أيضاً من الخضار الورقي الداكن، تساوى في فوائدها الغذائية مع أكالات كالسبانخ، من حديد وألياف وقيمة غذائية عالية، وبلدان يعيش على أرضها ملايين من محدودي الدخل، تعد مورداً جيداً ورخيصاً للخضراوات التي يحتاجها الإنسان بشكل كبير.

لكنها أيضاً من المحاصيل التي تأثرت بشكل كبير بسبب التغييرات المفاجئة والمتطرفة في درجات الحرارة، والناتجة عن التغييرات المناخية، والتي تؤثر على محصول الملوخية بالجفاف، خاصة مع تقليل حصص المزارعين من المياه من الترع والمصارف، إضافة إلى ما تسببه الحرارة العالية من انتشار الحشرات والآفات الزراعية.

وهكذا، تصبح الملوخية فصلاً جديداً من حكاياتنا مع الطعام، فصل نحكي فيه خوفنا من قتلها والضرر الواقع على محصولها ومحاصيل عشرات الأنواع من الخضراوات الفاخرة التي شكلت لعقود صمام أمان ضد أخطار انعدام الأمن الغذائي في البلاد.

اليوم، تقف هذه المحاصيل في موقف خطر، نفقد منها الكثير جراء التغييرات المناخية، وتقف منها النساء موقفاً خاصاً، كونهن المسؤولات عن إعداد ملايين السفرات في ملايين البيوت المصرية، وفي مواقع جغرافية مختلفة من البلاد، بسبب الأزمة الاقتصادية وغيرها، يكن مسؤولات عن زراعة تلك الموارد التي تتحول إلى غذائنا، أو حتى دفع ثمنه. بهذه الروابط والزوايا، تقف الملوخية موقفاً أخيراً مميزاً، كانعكاس واضح ومثال قوي على الهدف من هذا الكتاب، والرابط المهم بين موضوعاته الثلاث.

للهولة الأولى، قد تجد الربط ما بين النساء، النسوية، والمناخ أمراً غريباً، مستبعداً، قد يعود هذا إلى حداثة ثقافتنا فيما يتعلق بتأثير التغييرات المناخية على حياتنا اليومية، أو حداثة ثقافتنا فيما يتعلق بموقع النساء بكل التغييرات التي تصير في حياتنا اليومية.

بالرغم من كل المنح والمؤتمرات وحملات التثقيف العاملة لسنوات وعقود على الموضوعين، مازلنا نشعر تلك الفجوة في كل سؤال واستغراب سيظهر مع ظهور هذا الكتاب، عن الربط «الغريب» بين النساء والمناخ، إضافة إلى مفهوم النسوية.

لهذا التوجس تحديداً، رأيت في مثال الملوخية قصة مثالية تشرح الأمر بشكل بسيط، وتقدم اثنتي عشرة رؤية، هي الأساسات التي قام عليها هذا الكتاب. تقدم هذه القصص اثنتي عشرة رؤية مختلفة، لنساء شاركن قصصهن، أو استخدمن أصواتهن لمشاركة قصص نساء أخريات، وجميعهن ينتهين إلى محطة واحدة.

محطة تصل بك إلى فهم العلاقات المعقدة بين النساء والتغييرات المناخية، كيف يخلق ويعيد تشكيل علاقتهن بمهامهن الحياتية، وشكل الظلم والتمييز الجندي الواقع عليهن.

من بعيد، تبدو قضية التغييرات المناخية قضية علمية وسياسية بحتة، علماء يراقبون ويحذرون كل عام من ارتفاع وشيك لدرجة حرارة الأرض، مؤتمرات سنوية تجمع الأطراف المعنية سياسياً وحقوقياً تحت مظلة أممية، حيث تعرض دول وتباهى بإنجازاتها في تقليل بصمتها الكربونية، وأخرى فقيرة

تقف قضية المناخ هنا في منزلة مظلة كبيرة، يستطيع أن يحتوي الجميع تحتها من حرار الشمس، أو يصنع مكانه الخاص، عدسته الشخصية التي تسمح لرؤية الآخرين منها، والتعبير عن ذاته في نفس الوقت، وروايتها وتقديمها كما يرغب، تماماً كما نفعل جميعاً مع طبق الملوخية.

لحساسية الموضوع، وتعدد طبقاته وتعقيداته، كان الاختيار بالتعامل مع الموضوع من عدسة إثنوغرافية، وهي عدسة سمحت للباحثات الاثنى عشرة بأن يكن مراقبات، على أنفسهن وعلى نساء غيرهن، أن يبتعدن عن المشاهد اللاتي يراقبنها، يستعدنها ويحللنها، ومن ثم يعدن الانغماس فيها عندما يصفنها ويقدمنها للغير.

من خلال هذا الكتاب سترى باحثات انغمسن في تحليل العناصر المكونة لسفرة بيوتهن، في الماضي والحاضر، وانطلقن يراقبن ويحللن مكوناتها وتأثيرها يتغير ظروف عدة، مناخية وعمرانية وجغرافية. سنرى باحثات أخريات تبعن خيوط قصص لنساء التقين بهن بدافع فضول تولد لديهن في مرحلة من مراحل حياتهن، وأخريات تبعن قصص نساء ارتبطن بهن من واقع عملهن الميداني كباحثات. في تلك الحالات، لعبت إضافة العدسة الإثنوغرافية دوراً جوهرياً في إعطاء الباحثات المرونة والحرية للخروج والدخول من القصص اللاتي يحكيها للتمكن من وصفها وتحليلها بالقدر المطلوب للخروج برواية محكمة عن الواقع التي يجمعنا، نحن النساء، بحكاية المناخ وتأثيره على الأمن الغذائي، وكيف تشكل تلك الظاهرة وتعيد تشكيل علاقات القوى في مجتمعنا، وتعيد تعريف أدوارنا المجتمعية فيه، ومع شكل وأثر الظلم والتمييز الجندري الذي نتعرض له.

تفتح تلك العدسة أيضاً للباحثات مساحة التحرر من قيودهن مهنتهن، نرى من خلال قصصهن آراءهن وخلفياتهن الاجتماعية والاقتصادية، وكيف تؤثر على تحليلهن للمظاهر اللاتي يراقبنها ويخبرننا عنها، الأمر الذي يجعل من القصص الاثنى عشرة، اثني عشر زاوية مميزة لرواية شخصية/جماعية تربط النساء والمناخ والغذاء، لا يلي الأذرع، ولكن برؤية عناصر الرواية في موقعها الطبيعي. من هذا المنطلق، كان التقسيم الطبيعي للكتاب، هو بتبعية دورة إنتاج الغذاء، بداية من موقع زراعته، «الغيط»، ومن ثم تبعية في مراحل نقله المختلفة، ومن ثم النظر إليه من زاوية علوية في مكانه على سفرة العائلات والأفراد.

تصارع من أجل تحميل الدول الغنية الصناعية مسؤولية ما تعانيه من عقبات حرارة أرضنا الدافئة، سواء من أراض تغرق أو محاصيل تفتنى وتضرر.

قضية مجردة أبعادها تهم جمهوراً لا يصرار يوماً من أجل لقمة عيش أو فرصة لمستقبل أفضل، لا ينحصر تفكيره في إيجاد حلول لتقليل الضغط الاقتصادي ومتطلبات الأسر، ولا يعصر ذهنه كل شهر في إيجاد طريقة ضد المنطق والرياضيات، تجعل من راتبه الذي لا يصل الحد الأدنى للأجور مظلة تشمل متطلباته من بداية الشهر وحتى نهايته.

هذا الكتاب، يسحب هذه القضية المجردة ليضعها على الأرض، ويجعل منها أمراً إنسانياً في المقام الأول، كما يجب أن تكون، في محاولة أن نرى في قضية المناخ ما هو أكثر تفصيلاً من درجة حرارة الأرض والنسبة المطلوبة لتقليل الانبعاثات الكربونية من الدول الصناعية الكبرى.

في القصص الاثنى عشرة، تتحول قضية المناخ إلى مسألة ماذا سنضع على السفرة اليوم، إلى الثمن الذي ندفعه مقابل انتهاكات العمل التي تمارس ضدنا في ظل حرارة جو ترتفع كل عام، أو الضغط الاقتصادي الذي يخلقه محاولة الحفاظ على سفرة عامرة في ظل محاصيل زراعية تحاول النجاة من تقلبات الجو المتطرفة وعلاقات القوى في سوق الزراعة والنقل، في أوقات السلم والحرب.

كل هذه القصص تحاول أن ترى مشكلات تتقاطع مع التغيرات المناخية، وتأثيرها على الأمن الغذائي وقضاياها من عدسة إنسانية، نسائية، ونسوية، تحمل كل باحثة وامرأة ساهمت في هذا الكتاب أفكارها وأحلامها والتحديات التي تشغلها، وتحاول اختبارها من عدسة تربط المناخ والغذاء بأدوارهن الجندرية، والظلم الواقع عليهم وعلى نساء أخريات.

الأمل من هكذا رؤية، أن نستطيع أن نرى أن قضية كقضية المناخ مسألة تخصنا جميعاً، مساحة واسعة يمكنها أن تتحمل أفكارنا ورؤانا وهومنا الشخصية، فهناك من يراها تحدياً يضع رؤيتنا لتأمين المرأة الاقتصادي على الميزان، وهناك من يراها تهديداً مباشراً لمكانته الاجتماعية، كونها تعظم ظلماً مبنياً على النوع الاجتماعي، بتوفيرها عوامل تحرم نساءً من الأمومة، الهدف الرئيسي وراء وجودهن، في نظر المجتمع.

من ناحية، يسمح ترتيب القصص بترتيب دورة الغذاء بوجود أنسياب طبيعي بينها، من الإنتاج للنقل للاستهلاك، ومن ناحية أخرى، يسمح بفتح نوافذ طبيعية نستطيع من خلالها أن نرى العناصر الثلاثة الأساسية لموضوعنا وهي تتفاعل في المساحات الثلاثة.

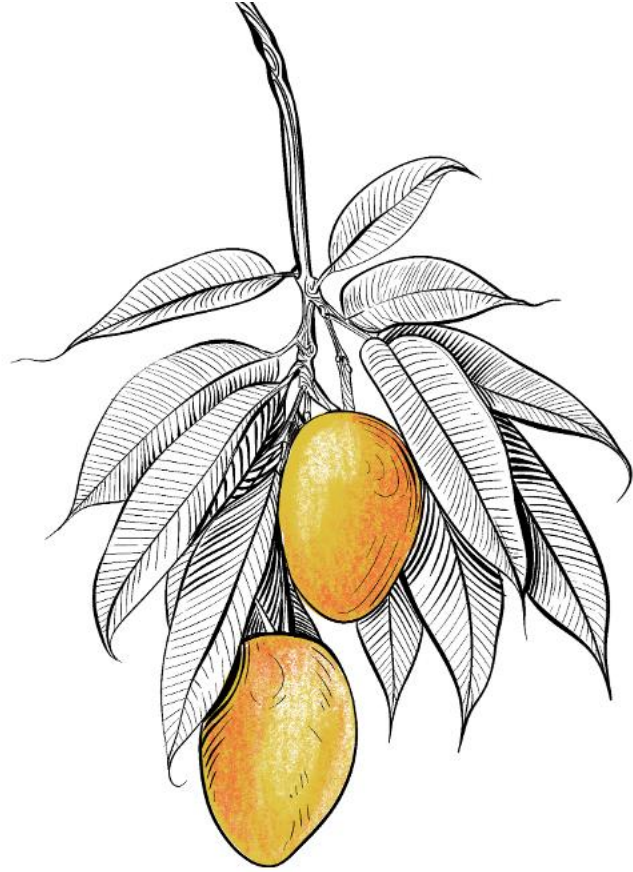
تركز النافذة الأولى «طرح الغيطان» على ما تطرحه مساحة إنتاج الغذاء من قصص، مشاهد وزوايا، تستكشف روابطنا بالأرض وكيف تصنع علاقات قوى بين الأفراد داخل الأسر والمجتمع، وكيف تتغير كل هذه التفاصيل مع تغير المناخ.

أما عن النافذة الثانية «رحلات الطعام» فهي مساحة متحركة، تنظر إلى عمليات نقل الغذاء بشكل الواسع المرتبط بالمساحة من الغيطان والمزارع إلى منافذ البيع، وشكلها الأصغر بنقله إلى البيوت، سواءً بفعل أفراد الأسر أو من خلال خدمات التوصيل، يتضمن هذا معضلة توفير الطعام نفسه والاختيارات المرتبطة به وكيف تتغير جغرافياً وعمراً.

والنافذة الثالثة والأخيرة هي «اعلى السفرة»، حيث نفرّد مساحة واسعة لذلك المسطح الخشبي الذي يجمعنا، نضع عليه وجباتنا، ومعها نضع ثقافتنا واختياراتنا وأمور أخرى نستطيع استكشافها من خلال المقالات والقصص المنشورة تحت هذا الفصل.

هذا المجهود الذي اضطلع به اثنتى عشرة باحثة، في مشروع تحت رعاية مؤسسة فريدريش إيبيرت مصر، يهدف في النهاية أن نتفهم عزيمتي القارئ لماذا بدأت هذه المقدمة بلهجة طويلة عن طبق الملوخية الذي نعرفه ونحبه ويعبر عنا، حتى نستطيع أن نراه كمنطلق طبيعي لحديث يتضمن الغذاء، النساء والمناخ.

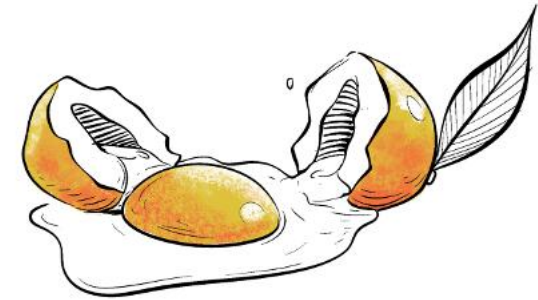
قضية المناخ قضية محورية وكبيرة تخص العالم، لكن ما يعنيه هذا الأمر أيضاً، أننا كلنا نستطيع أن نجسدها من الزوايا التي نخصنا، ونصنع منها قضيتنا الشخصية، في عالم تتعدد فيه الزوايا والمصالح والآراء، يستطيع أحدهم أن يرى التغيرات المناخية في مسألة البصمة الكربونية ومدى دفء الأرض، وأستطيع أنا أن أراها في التهديد المحيط بطبق الملوخية.



الفصل الأول

طرح الفيضان

حكايات حول الغذاء والناخ من نقطة إنتاجه، المكونات، الأفراد،
والتغيرات المرتبطة بها



اخترت أن تكون بطلة رحلتي هي «أم ياسين»، عاملة زراعية باليومية لها تجربتها الخاصة مع العمل الشاق، بالتوازي مع مهمة النساء المميزة، إنتاج البشر. تحدثت معها لأعرف عن ظروف تكيفها مع الحمل والعمل الشاق، وسبل مقاومة جسدها الهزيل للإجهاد الحراري في سبيل تصدير محاصيل مثل الطماطم والقراولة، في ظل تغيرات مناخية عالمية.

في قرية طحا العمودين، التابعة لمركز سمالوط محافظة المنيا، قابلت أم ياسين.

امرأة ثلاثينية، متوسطة الطول، شاحبة، تعمل في الزراعة منذ سن الخامسة والعشرين، تخرج إلى عملها الساعة الثالثة فجراً، وتعود منه الساعة الرابعة عصراً. لا تجيد أم ياسين أي حرفة أو صناعة غير الزراعة، وزيادة على مشاق ذلك العمل، لا تجد هي والنساء مكاناً للعمل إلا فيما يسمى بمزارع الصحراء، وهي مزارع استثمارية تبنت الحكومة المصرية التشجيع على إنشائها منتصف التسعينات، وتحتاج أيد عاملة «رخيصة» كنساء مناطق الريف المصري.

تعتبر تلك المزارع مأوى أم ياسين وغيرها من النساء الوحيد، ذلك أن رجال قرية طحا العمودين، يرفضون العمل بجوارهن في الأرض، «عندنا في البلد، محمش يرضى يشغل الحریم... الرجالة تجول أنا مجفش في الأرض كنتي بكتف الحریم».

انتقلت الحكومة المصرية من سياسات التوجه نحو الداخل إلى سياسات تعتمد على السوق والمنافسة في مجال الزراعة، مع انضمام مصر إلى منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٥، مع التركيز على التوسع الأفقي والتحديث الزراعي، بغية تحقيق زيادة في معدلات التنمية، والانتفاء للسوق العالمي المفتوح. تباينت حجم ومساحات المزارع الاستثمارية، إلا أن أغلب المستثمرين الزراعيين في مصر لم يضعوا أموالهم في شراء آلات زراعية ثقيلة تغني عن الأيدي العاملة، بل ظل في حاجة للعمالة الكثيفة رخيصة الثمن، وهذان شرطان متوفران لدى النساء في الريف، الفئة التي لا تجد خيارات أخرى.

لم أشعر يوماً أنني معزولة عن الريف على الرغم من نشأتي في مدينة. بدأت صلبتي بالريف عندما كنت أدخل منزلنا فأشم رائحة الحلبة فتقول لي أمي: «جالنا النهاردة عيش بتاو من البلد».

مدينة المنيا مطلة على النيل، أرى المراكب الشراعية حيث أقف على الكورنيش، وعلى الضفة المقابلة لي الجبل، وأسفل منه جنائن الموز، وفي وسط النيل جزيرة خضراء طوال السنة.

ارتبطت بالنسوة اللاتي كن يجلبن الأطعمة إلى منزلنا مع كل موسم: الكشك، الزبدة، الفول. اعتدت التحديق طويلاً في ملامحهن، كيف يتكلهن، كيف يشكين أحوالهن، وكيف يضحكن. ظلت صورهن عالقة في ذهني، ودون وعي مني، وجدت نفسي أريد معرفتهن أكثر.

أسمع عنهن في بيت جدتي من نساء العائلة: «فلانة دي عنيا فارغة، وفلانة دي إيدها طويلة»، في أحاديث أراها إعادة لإنتاج نظرة الإقطاعيين تجاه صغار الفلاحين كمجموعة من الكسالى و الانتهازيين والمنافقين، بحسب ما أخبر عنه تيموثي ميتشل في كتاب حكم الخبراء.

لذا بدأت التقرب والتعرف على منتجات الغذاء الحقيقية، دون أحكام مسبقة، وكيف يصارعن في ظل ظروف اقتصادية داخلية تزيد من تهميش الريف خصوصاً في الصعيد في ظل اتفاقيات دولية تعمق من معاناة النساء.

ضحية أولى لغياب حقوق العمالة غير الرسمية

السياسات الزراعية الجديدة ضمنت السيادة الكاملة للاستثمار، مع تغييب غير مباشر للحماية القانونية، نجده في عدم تفعيل قانون العمل رقم ١٤ لسنة ٢٠٢٥ مادة رقم ٦٠ انخاص بإنشاء حضانات داخل منشآت العمل، ما يعد تجاهل مرافقة الأدوار الرعايية للنساء حتى في أوقات العمل. ينتج عن هذا التغييب اضطراب العاملات إلى اصطحاب أطفالهن للزراع، مما يعرضهم لكثير من الحوادث وصولاً للوفاة.

«في مرة كنت بشتغل في الطماطم وكنت بشيل عديبات (أقفاص) الطماطم وسبت ابني، راح كلب سمران من الصحرا جري وراه لحد ما خلاص كان هيعضه، لحد ما واحد لحقه».

تصطحب أم ياسين ابنها معها إلى العمل، وتترك ابنتها الصغرى مع إحدى الجارات لترعاها، إلى أن جاء يوم صدمت فيه سيارة مارة الفتاة الصغيرة وماتت.

«شفتها يادوب ساعتين قبل ما أمشي على الشغل في الفجر»

صمتت أم ياسين قليلاً ونظرت في الأفق واستطردت في الكلام: «بقيت مش عارفة اععمل ايه؟ واخدة معايا العيل العيان وساية البت الصغيرة.. دفناها بالليل وفي الفجر طلعت الصحراوي عشان الواد عيان وعاوز يعمل تحاليل.. ده انا ملحقنش حتى أحزن عليها».

شعرت، وأنا أسمع كلماتها، أن العالم يدور بي.

ما هي همومي ومشاكلي أمام أم ياسين؟ لم لم استشعر أصابعها على حبه الطماطم قبل أن أقطعها؟ لم لم استشعر معاناتها في شكل حبة خضار أو فاكهة اشترتها؟ أو حزنها على وفاة ابنتها وخوفها على ابنها؟، لكنني لم أجدها عابئة غير بأمر واحد، وهو كيف تعيش؟ وكيف يمكنها علاج ابنها عند المرض؟

تشبه أم ياسين النساء اللاتي طالما زرن منزلنا بأطعمة المواسم، وهي ليست مجرد عاملة تراحيل عادية، فهي تجسّد لكل المخاطر والمشكلات التي تحيط النساء في أعمال مشابهة، حيث تستقل مع العاملات سيارة نصف إلى موقع المزرعة، وهي وسيلة مواصلات غير آمنة وعرضة لحوادث الطرق، وخلال عملها، يقعن تحت تهديد لدغات الثعابين السامة والعقارب، وأثار الإجهاد الحراري الناتج عن ارتفاع درجات الحرارة، واحد من الأسباب المباشرة للتغيرات المناخية مع إصابة العديد منهن بأمراض سوء التغذية، وقلة المتوفرهن من المياه، يزيد على معاناة أم ياسين، أنها تعرضت للإجهاد أكثر من مرة.

بالنسبة لأسرتها، أم ياسين هي مصدر الدخل المستقر الوحيد، في أسرتها، مع زوج مريض بالقلب لا يجيد حرفة ولا يقوى على العمل اليومي بالمزارع، لتصبح واحدة من ١٧٪ من نساء مصر المعيلات لأسرهن، بحسب بيان للجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء صدر عام ٢٠٢٣.

يومية أم ياسين ١٢٠ جنياً مصرية، تنفق منها من ٤٠ إلى ٥٠ جنياً لشراء طعام الإفطار، تشتري المياه باردة في فصل الصيف في طريقها إلى العمل صباحاً، كونها لا تستطيع جلب زجاجة باردة من منزلها إلى العمل، فطول المسافة بين المكنين سيفقدتها برودتها، يتبقى من يوميتها من ٧٠ إلى ٨٠ جنياً، تنفهم على التزامات الأسرة من طعام وشراب وعلاج وفواتير، إضافة إلى اقتطاع جزء لتسديد قرض، كانت اقترضته لعلاج ابنها المصاب بالتهاب الكبد الوبائي، للوفاء بطلبات الطبيب من تحاليل دورية لمتابعة تحسن حالة ابنها.

على مر تاريخ فلاحي مصر مع الفلاحة، لم يعنى المصريون أبداً بأزمة جلب المياه إلى موقع العمل، ف «طرمة الماء» المتوفرة في كثير من الأراضي كقيلة بسد عطش الفلاحين، أما في النمط الزراعي الاستثماري فالمياه غير صالحة للشرب، يصفها العمال الزراعيين بأنها «مياه مالحة».

إضافة إلى تخزينها في مستودعات ضخمة، تحول دون قدرة العاملات على استعمالها في غسل الطعام أو لأغراض النظافة الشخصية.

العاملات الزراعيات حكين لي، خلال متابعتي لأم ياسين ومجتمعها من النساء العاملات في أراضي الاستثمار الزراعي، أن محاولات سابقة للوصول إلى مياه الخزان كاد أن يتسبب في موت فتاة صغيرة غرقاً.

علاقات القوى في المزرعة: مقاول الأنفار

بشكل أو بآخر، ارتبطت مهنة مقاول الأنفار بشكل دولة محمد علي الحديثة، خاصة في مشاريع البناء والتشييد التي ميزت تلك الفترة. كان المقاولون وسطاء بين الحكومة والعمال، لذا ارتبط هذا الدور بسمات شخصية معينة، أهمها وجود علاقات عائلية متجذرة في القرية التي تمثل مورداً لليد العاملة، وعلاقات مع المطايرد والبلطجية الذين قد يتعرضون لهم أو للمشروع بالإيداء أو التعطيل، وإمتلاك نفوذ مالي، وتكفل هذه السمات مكانة مميزة في المجتمع المحلي، وتضمن للنظام الحاكم وملاك الأراضي استمرار تدفق العمالة الرخيصة لأراضيهم.

مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالانفتاح الاقتصادي في السبعينات، والدخول في حقبة الاقتصاد النيوليبرالي، ظل مقاول الأنفار يمارس مهامه القديمة، هذه المرة لصالح المستثمرين. ولم يعد ضرورياً أن يكون مقاول الأنفار رجلاً، مع إظهار النظام الاقتصادي الجديد مرونة تخدم مصالحه، صار مقاول الأنفار امرأة تتمكن من دخول المنازل في غياب الرجال، وتملك المقومات ذاتها التي تعطيها القوة والنفوذ.

هذه التحولات الاقتصادية والسياسية عمقت من حدة الفقر في الريف المصري، على الرغم من كونه المنتج الرئيسي للغذاء، وزيادة نسبة النساء في عمالة الزراعة، زاد من سطوة مقاولي الأنفار وأصحاب المزارع، وعمق من معاناتهن واستغلالهن مادياً وجسدياً، نتيجة اتجاه الرجال للهدن والبحث عن عمل، أما النساء فهن ملزمات بالبقاء في قراهن نتيجة القيود الاجتماعية والأعباء الرعائية، ما جعلهن خاضعات لظروف عمل غير محتملة، من القبول بأجور أدنى، ومعاملة دونية ترتبط بجنسهن، وتنقل الممارسات الذكورية من حيز المنزل الخاص إلى حيز العمل العام.

كانت هذه الأوضاع منفرة بما فيه الكفاية للرجال، مما أفسح المجال للنساء لدخول فئة عمال التراحيل بشكل مكثف في القطاع الزراعي.

• أحيانا بتكون المقاولة كويسة وأحيانا لأ، بس كانت بتخليني أجمعد في الكاينة من قدام عشان انا حامل

= طيب لو قلتي إنك مش قادرة تشتغلي من التعب هل المقاولة ممكن تجبرك على الشغل؟

• لأ محدش يجبر حد على الشغل.. لو اشتغلت هتديني اجرتي ولو معملتش المعدل بتاعي مش هاخذ أجرة.. بس هتقولي لما انت تعبانه ايه اللي مطلعك، عشان كدة لازم اجبر نفسي على الشغل ماهو محدش يبسلف حد».

على الرغم من محاولات المقاولة مراعاة ظروف الحمل لدى أم ياسين، إلا إنها تبقى جزءاً من آلية سير العمل، بالتالي لن تستطيع تقديم تساهلات كبيرة مع العمالة، فهي تقف على رأس العمال:

«يلا اشتغلي.. يلا بلاش كسل.. بلاش مرقة لما انت تعبانه ايه الي جابك».

في النهاية المرض والكسل والتراخي، أسباب ستأكل في النهاية من الحصة التي تجنيها المقاولة من أجرة كل عاملة، لذا فلا وجود للتعاطف في هذه العلاقة.

خلال عملي الميداني في إحدى القرى، كنت أرغب في التسجيل مع واحدة من مقاولي الأنفار، أتذكر جيداً نظرتها المترقبة تجاهي، وتحريض بناتها لها على عدم التعاون معي، وتصاعد الموقف لدرجة أني كنت على وشك أن أتعرض للضرب، إلى أن انسحبت من الموقف بهدوء.

ضحية أخرى لانعدام العدالة المناخية

هذا ما تعرفه أم ياسين عن التغيرات المناخية:

«الدنيا بتبجي حر جدا»

دفعني ردها إلى محاولة التوضيح بشكل بسيط لماذا يكون الطقس «حر جداً»، وما هي تبعات هذا التغير، وجدت منها استجابة.

«ايوه عشان كده بنعطش وبنكون عاوزين نشرب ميه كتير».

سألها:

«انت قلتيلي إنك حاولتي تخلفي تاني بعد بنتك سما الله يرحمها، بس مايحصلش نصيب تفتكري ليه؟»

حكيت لي:

«بسبب العربيات والسكة المكسرة. بس في مرة منهم كان في الصيف والدنيا حر جدا جدا والميه الي معانا خلصت والراجل صاحب المزرعة كان معاه جركن ميه مدسيه (أخفاه) مننا»

تضيف

«في اليوم ده كنا شغالين في الشام، بقينا نفتح الشام نشرب الميه اللي فيه من شدة العطش، وعلى ما روحت البيت وجعت من طولي وركبت محاليل، وسجطت في ليلتها».

تعكس هذه القصة منطقاً نيوليبرالياً يضع تحقيق الأرباح أولوية على حساب البشر. إلا أنه في مفارقة صادمة، يتشابه في تطوراته مع شكل من أشكال التعذيب التي اخترعها الإنسان عبر تاريخه.

تعرض حمل أم ياسين الثالث إلى الإجهاض نتيجة تعرضها للإجهاد الحراري نتيجة قلة المياه، قررت أم ياسين والعاملات الاستعاضة عن بحلول السكر المركز في فاكهة الشام، وهو ما يتشابه مع حالات

التعذيب التي يتم فيها تعطيش الضحية بإدخال محلول سكري إلى جسمها، إضافة إلى حالة الضعف العام وسوء التغذية التي تعاني منها أم ياسين، ما انتهى إلى إجهاض الحمل.

لم تدرك أم ياسين هذه العلاقة، معتقدة في البداية أن الإجهاض حدث نتيجة «زعل»، إلا أن موقفها لم يزد إلى تجاهها لقلة الحيلة إزاء واقعها:

«طيب هعمل ايه؟ لما حبيت اريح في البيت الفترة الاولى لحد ما الحمل يثبت جوزي مقدرش يشتغل كل يوم عشان مرضه»

تصف أم ياسين وضع يستحيل منه أن تخرج من دائرة المعاناة مع مزارع الصحراء، علاقات العمل غير العادلة، وتعقد كل هذه العوامل في ظل تأثيرات التغيرات المناخية الواضحة على حياتها:

«والله كانت بنتي لسة عايشة ومامعيش فلوس في البيت نهائي، كل اللي كان عندي شوية كشك، قعدت أنا وعيالي ناكل فيهم ٨ أيام من غير بيض حتى، أنا ماينفعش أجعد».

ظهر في كلام أم ياسين شعور بالاعتراب عن عملها والمحاصيل الزراعية التي تقوم بجنيها:

«احنا بنعمل الي صاحب المزرعة يقول عليه وفي آخر النهار بناخذ اجرتنا ونمشي».

لا تعرف أم ياسين المكان الذي تتجه له يومياً كونه متغيراً، ولا نوع العمل الذي ستقوم به لأنه مرتبط بقرار مقالة الأنفار، لذا تجد أم ياسين نفسها كل يوم في مزرعة مختلفة، بعمل مختلف، بصاحب عمل مختلف.

هذا الوضع يزيد من هشاشة العاملات الزراعيات، فالتنقل بين المزارع لا يعطي مجالاً للتضامن العمالي والمواجهة والمطالبة بأية حقوق، وهن مدركات لذلك تماماً لكن ضغوط ومتطلبات الحياة لا تعطي أية فرصة للفرار من هذا المصير، مما يجعلهن هامش داخل الهامش. في ظل محاولتهن للقيام بدورهن الجندي كواهبات للذرية، حتى مع أجساد ضعيفة يحول دون دعمها الغذاء والدواء المصاعب الاقتصادية الالتي يعانين منها.

بين ثلاث غرف.. مقاومة جدتي لقرارات لا تمر عليها

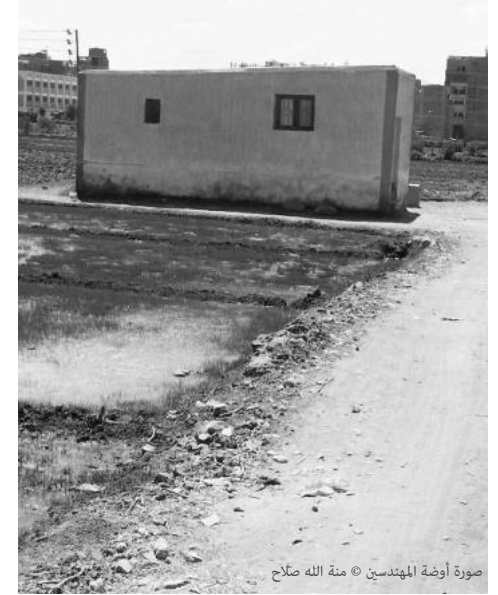
منة الله صلاح

ماذا يعني تغير المناخ؟ أتذكر ما شرحتة لنا أستاذة سناء بمادة الدراسات الاجتماعية؛ أننا يجب علينا المحافظة على البيئة، ولكن ماذا تعني البيئة؟ وماذا يعني تغير المناخ؟ أتذكر أيضاً طفولتي بين الغيطان، أذكر الأراضي الزراعية المملوكة للدولة، والتي تستأجرها جدتي وغيرها من الفلاحين، الأراضي واسعة وقريبة من بيوتنا، لكنها لا تشبه أراضٍ يملكها الفلاحون أنفسهم، تلك التي ورثتها جدتي عن والدها في منطقة «حوض الجمل».

تلك الأراضي الحكومية لا تحتلها أشجار التوت، ولا الزرائب المتناثرة، والغرف التي يبنها الفلاحين من الطين والقش، ويميزها أيضاً وجود الأوضة، ذاك المبنى الصغير الذي يجتمع به المهندسين الزراعيين، ليقرروا ما تزرعه جدتي وغيرها من الفلاحين الذين يؤجرون أراضٍ الدولة، ومتى يزرعونه.

أذكر حين تجمع جدتي خالاتي وخالي على طبلية أكل واحدة، وكوباية شاي، حيث نخبرهم بخطط اليوم ومن سيفعل ماذا؟ من سيذهب لحوض الجمل ومن للزراعة؟ ويناقدون خططهم للتصرف مع «الأوضة» ومهندسيها، وماذا سيزرعون مع جيرانهم بحوض الجمل، وكيف سيواجهون تحديات يومية يمرون بها.

كانت «الأوضة» تجلّ مصغر لسلطة الدولة للسياسات الزراعية، سيادة مبنية على قرارات فوقية، مثل قرار منع زراعة الأرز، والذي لم يبن على حوار مع المزارعين. تمثل «الأوضة» أداة لتنفيذ السياسات مركزة، دون مراعاة تنوع السياقات المحلية، أو معاناة الفلاحين الاقتصادية يمر الزمن وأجد نفسي في قاعة



صورة أوضة المهندسين © منة الله صلاح

هل تحول جسد أم ياسين إلى وسيلتها للتمكين الاقتصادي والاجتماعي؟ تحاول أم ياسين الإنجاب من بعد خسارة طفلها، لكنها قد لا تتمكن من ذلك، إما بسبب وسيلة النقل التي تقلها يوميا على طرق وعرة، أو بسبب عامل الإجهاد الحراري، لتجد نفسها غير متحقة اجتماعيا في محيط من النساء يكثرن الإنجاب، ليتحول صغارهن أنفسهم إلى مصادر للدخل.

لا يمكن الحديث عن السياسات الزراعية النيوليبرالية في مصر دون التطرق لمسألة التنمية، مع التصدير الدائم لوجوب تجاه مصر لاستزراع الصحراء لتحقيق تنمية اقتصادية كافية، إلى أن هذا التطور لم يقابله تنمية للعنصر البشري بنفس القدر، بل اعتمد في تحقيق تطوره على قلة وعي الفلاحين بحقوق العمل وإمكانية حشدتهم في ظروف عمل غير آدمية، مما جعل الثمن هو أجساد البشر ذاتها.

أم ياسين هي واحدة من آلاف النساء المجبورات على تحمل عبء إعالة أسرهن مقابل لقب «ست اصيلة بتساعد جوزها»، لقب يتحملن من أجله لوم الاجتماعي لخروجهن للعمل بمزارع الصحراء، ومشقة جسدية تعود على مكانتهن الاجتماعية نفسها سلبا.



صورة أوضة المهندسين © منة الله صلاح

يناقش بها خبراء وأكاديميين ومتخذي القرار التغيرات المناخية، وكيف تؤثر على الفلاحين، وما هي القرارات والإجراءات الواجب اتخاذها.
أفكر: أين جدتي من كل هذا؟

كان تلك من أوائل الجلسات التي حضرتها عن تغير المناخ، لمجموعة من الأكاديميين والباحثين من الإسكندرية، دخلوا علينا بقمصانهم البيضاء اللامعة. كان الزملاء ينظرون باندهاش شديد لأحد الضيوف ويهمسون بأذني، حديثة العهد بهذا المجال: «ده راجع التقرير الخامس للهيئة الحكومية المعنية بتغير المناخ».

تحدث الخبير الدولي مع المشاركين إننا لمواجهة تغير المناخ، يجب أن نستنبط أصناف جديدة

متحملة للحرارة والملوحة من الأرز، وأنه على الرغم من أهميته للفلاح المصري، فهو يغسل أرضه بالماء الغزير كل الموسم من الأسمدة والأملاح الزائدة، ويحسن من خصوبة التربة التي تراجعت بعد بناء السد العالي، إضافة إلى إنتاجه الوفير وأهميته كمصدر دخل وغذاء له ولأسرته، لكن قرارات صدرت بوقف زراعته بسبب أزمة المياه التي تعاني منها مصر، ولاحتياج الأرز لكميات كبيرة من المياه.

بدا الخبير وكأنه ينظر فقط إلى الكم لا الكيف. لم يذكر أن طعم الأرز تغير، أن نكهته المميزة أيام جدتي اختفت الآن. لم أعد أجد تلك النكهة في أي صنف. كان الجودة والذاكرة المدافية لم تعد تُحتسب ضمن حسابات المناخ والإنتاج.

تذكرت شكوى جدتي وأحياناً دعائها علي من منعهم من زراعته، والتي كانت توفر احتياجات المنزل منه طوال العام. وتذكرت أشولة الأرز التي حصلت عليها والدتي من محصول جدتي، وترفض تبويضها، ظلت أمي تنقل أشولة الأرز كل بضعة سنوات من مكان لآخر في محاولة للحفاظ عليه أطول فترة ممكنة. تقول «هو إحنا نعرف نلاقه تاني».

أذكر هلع جدتي من لفحات الشمس التي أحرقت البرسيم والذرة، ومسارعتها لسؤال جيرانها من الفلاحين عن سماد أو مبيد لرشه، لتنفذ به ما تبقى من المحصول.

جدتي التي رغم تقدمها بالعمر لازالت متمسكة بالأرض «ريحة أبوها»، والقطعة الأخرى المستأجرة التي ربت بها أولادها، رغم انسحاب كثير من الفلاحين، وتبوير أراضيهم التي أصبحت لا تدر عليهم دخلاً كافياً لاحتياجاتهم، بل وأحياناً ينفقون عليها من جيوبهم الخاصة، فأصبحت الفلاحة عبئاً بدلاً من أن تكون مصدر دخل.

لم أر مثل هؤلاء الخبراء بقمصانهم البيضاء الناصعة في قرينتنا، يخبرن جدتي وخالتي أم جودة وأم عمرو عما يجب فعله. ومع الوقت وحضور مؤتمرات الأطراف لتغير المناخ بشرم الشيخ، لم أرسو بدلات رسمية وربطات عنق، يتحدثن في الأجنحة المختلفة عن الزراعة والقرية، أستمع إليهم فافتقد قريتي وجلابيها.

تقوم تلك القاعات مقام «الأوضة» حيث يجلس المهندسون الزراعيون طيلة ساعات عملهم التي تنتهي في الظهيرة على أقصى تقدير، يحتمون من حر الشمس، لا نراهم إلا حين يأتي وقت جمع الإيجار أو مع وجود مستجد من الإدارة الزراعية لإعلام جدتي وغيرها من الفلاحين به.

وتعود جدتي للاجتماع بخالي وخالاتي حول الطبلية لتناول الطعام وشرب الشاي، توزع جدتي المهام: سيزرعون القمح في أرض حوض الجمل، والبرسيم في الأرض المؤجرة، يعترض خالي معلناً رغبته زراعة الباذنجان أو غيرها من الخضار في الأرض المؤخرة لتحقيق ربح، لتخبره جدتي أن أرضهم المستأجرة ليست مخصصة للخضر، ولذلك لن يحصلوا على المياه اللازمة لزراعتها. وفي أرض حوض الجمل تحكهم علاقتهم بأرض جيرانهم الذين يشاركونهم في «الرية»، فالممكنة لن تأتي لأرضهم وحدها.

لم يهتم أحدهم بمناقشة جدتي ولا سؤاها كيف تؤثر قرارات الغرفتين عليها وعلى حياتها، ولم يخبروها لم منعوها من زراعة الأرز أو لماذا قلت إنتاجيته، ولا سألوها عن تجاربها وحيلها المستمرة لمواجهة ارتفاع درجة الحرارة ولفحات الشمس وتغير المواسم واضطراب مواسم سقوط الأمطار ولا تراجع إنتاجيتها.

ظلت معرفة جدتي وخبرتها حبيسة تجربتها أو دائرة مشاركتها الخبرات مع من حولها من الفلاحين، وظلت صدى المعرفة بالقاعة السلطوية والأكاديمية يكبر وينعكس أثره في اختفاء الأصناف البلدية رغم جودتها وأصالتها.

ظلت جدتي على الهامش، تتحمل تبعات تغير المناخ، بل أيضاً قرارات اتخذها أشخاص لا يعلمون عنها شيئاً، ولا يسعون لرؤيتها. لم تكن المشكلة أنهم لا يعرفون جدتي، بل أنهم لم يحاولوا يوماً أن يعرفوها. لم تكن المشكلة في جهلهم بواقعها، بل في تجاهلهم المتعمد لاحتياجاتها.

تخاز «الأوضة» لسلطة الإدارة الزراعية، وتخاز «القاعة» لسلطة المؤشرات والتقارير الدولية، وفي الحالتين، لم يكن الفلاح ضمن تلك الانحيازات. بقيت جدتي خارج المعادلة، تتعامل مع آثار قرارات لا تمر عليها، ولا تعترف بها، لكنها تدفع ثمنها يوماً من تعبها وأرضها وذاكرتها.

المراجع

Scott, James C. (1985). Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance. Yale University Press

سعة حيلة جدتي كانت أكبر من القيود، فتزرع أحياناً الكرنب على حد الأرض، وتشجع أولاد الحاج علي على ذلك، وتزرع أيضاً: «شوية بطاطا أهو ناكل منهم، والفلاحين يقولوا حلوة للبيام، والتوم بقى الفلاحين مستعجلين وبيقلعوه وعرشه أخضر (لم ينضج بعد)، نزرع خزينا عندنا ونعطشه عشان يعيش».

لم تكن حيل جدتي معزولة عن تجارب العالم، لكنها بدت وكأنها امتداد لمقاومة الفلاحين الصغار في كل مكان، كما وصف جيمس سكوت في دراسته «أسلحة الضعفاء: أشكال المقاومة اليومية للفلاحين».

يرى سكوت أن الفلاحين لا يواجهون السلطة وجهاً لوجه، بل يمارسون حيلاً صامتة: مثل تأخير الزراعة، زراعة أصناف ممنوعة، تبادل التقاوي بعيداً عن السوق الرسمي. هذه الحيل، رغم بساطتها، هي ما يسميه سكوت «أسلحة الضعفاء»، أدوات يستخدمها المهمشون للحفاظ على استقلاليتهم في مواجهة أنظمة لا تراهم.

ففي قري الأرز في كيداه بماليزيا، أو بين الفلاحين في شمال الهند، لجأ المزارعون إلى زراعة بذور تقليدية أو مقاومة استخدام التقاوي الهندسة وراثياً رغم دعم الحكومات لها، وتمسكوا بممارساتهم الزراعية الموروثة كمقاومة صامتة للسياسات الزراعية المركزية، لا رفضاً معلناً، بل حفاظاً على هامش من القرار.

كانت جدتي، بحساباتها الصغيرة وزراعتها الهامشية، تخلق لنفسها بدائل لا تفرضها «أوضة» المهندسين ولا تعترف بها «القاعة» التي كنت جزءاً منها. كانت تزرع ما تقدر عليه على طرف الغيط، أشياء بسيطة في ظاهرها—كالكرنب، أو ما تيسر من البطاطا والثوم—لكنها كانت طريقتها لتقول لا. حيلة تحمل في طياتها رفضاً صامتاً، لا يلتفت له من يضعون القرارات، لكنه يثمر رغم كل شيء.

في رحلتي الشخصية، هناك ثلاثة غرف: غرفة جدتي التي تتخذ فيها قرارات وتعلم أبناءها بها وتناقشها معهم، و«الأوضة» التي اتخذ فيها المهندسون القرارات بالزراعة لجدتي وغيرها من الفلاحين، و«القاعة» التي ضمت الورش والمؤتمرات التي ناقشت السياسات الزراعية والقرارات الدولية والمحلية التي ستحدد شكل الإنتاج الزراعي.

رثيفة... اسم لذاكرتي إيمان عماد الدين

إنه أسبوعي السنوي المميز في إجازة الصيف، العام هو ٢٠٠٤، والمخطة هي حيث نمر عبر أراضي خضراء على جانبي الطريق إلى دوار جدي. تعطلت سيارتنا نتيجة ارتفاع درجات الحرارة، فتضاعفت مدة المشوار من ٦ إلى ١٣ ساعة، أصل مع أذان الفجر وأغوص مرهقة في نوم عميق. يوقظني صباحاً صوت طقطقة خفيف لمروحة سقف غرفة الضيوف، حيث نزلنا ضيوفاً على جدي. رائحة ملوحة المانجو المخزنة أسفل سريري تحرق أنفي قليلاً، انتظارا لدورها في الأكل أو العصر.

يعيش جدي مع زوجته في دوار من طابقين، له فناء به عدد من البهائم والطيور، وفرن بلدي تحبز فيه عماتي طعام الغداء يومياً، والخبز كل يومين، لجدي من الأبناء والبنات ١٦، ومن الأحفاد ما لن أحصره الآن. ظننت في صغري أن جدي عمدة القرية لوسع داره، لكنه في حقيقة الأمر كان مديراً للجمعية الزراعية.

في دوار جدي، المانجو لم تكن أبداً سلعة تشتري؛ بل قطاف يدا جدي مع استيقاظها فجرًا لتباشر مهام عملها اليومية، بدءاً بتحضير الإفطار لأعمامي قبل ذهابهم إلى الغيط. عيش بتاو مبلول وبيض بالكشك على طبلية تجمعهم في صالة الدوار الفسيحة.

لطالما أخبرني أبي «ستك اللي بتعمله محدش يقدر يعمله». لا أعلم إن كان ذلك لاستحالة أم لتعقيد، كان لجدي وجه جميل يحمل إرهاقاً لا يظهر على جسدها النحيل. كلها رأيتها سمعت في رأسي أغنية «الحلوة دي قامت تعجن في البدرية والديك بيدن كوكو كوكو في الفجرية». «الحلوة دي» كانت رثيفة، جدي التي تمام بعد اطمئنانها لوصول الطحين إلى غرفة الخزين، ونصيبها من النوم ٥ ساعات، فالخيز يجب أن يبدأ فجرًا ليمت انجازه قبل صلاة العصر.

في قريتي، يحسب الناس المواعيد بمواقب الصلاة. صلاة الفجر هو موعد استيقاظ أهل المنزل، النساء في بيوتهن والرجال لأداء الصلاة في المساجد، تنتهي الصلاة فيبدأ كل مهمته. في المنزل، تشرف

جدي على الجميع بينما تعلم كل عضوة فيه مهمتها تلقائياً، ربما لتكرار النظام يومياً، وتشارك رثيفة الجميع في أعمالهم. تطمئن على تسوية الفول المتروك على النار من ليل اليوم السابق، تحلب الجاموسة وتخض اللبن، لتحصل على الزبد والجبين.

بعد تحضير الإفطار، تأتي عماتي ملفوفات بتراب الفرن، جامعات للصحون المتسخة لتنظيفها واحدة تلو الأخرى، تؤكد جدي على الجميع «لمبة الجاز نتغسل الاول وتنحط تنشف بعيد إلا نكسر». تنتقل غرفة العمليات إلى جمع الملابس المتسخة والانتها من غسلها قبل الظهر لتترك في الشمس مدة تكفي لتجفيفها.

على مقربة من صلاة الظهر، تحضر جدي وجبة خفيفة لجدي وأعمامي، لتصلهم الغيط مغلفة في منديل قماشي، تعود رثيفة بعدها للاطمئنان على سير العمل في المنزل، نتأكد من صحة ترتيب الملابس على حبال الغسيل، مستعدة لوم المسؤول عن المهمة «الشمس هنا كله» لو لاحظت خطأ، بينما تقوم العمات بتزغيط البط ممسكات بربقاتهن.

بحلول صلاة العصر، تنتهي مهام التنظيف ويأتي دور الطعام، في نفس الوقت، يعود المنديل القماشي حاملاً أشكالاً من الخضار: الطماطم، والخيار، والفلفل، والملوخية أو البازلاء. أما عن البصل والثوم، فمخزنين طوال العام على سطح المنزل، والليمون ليس سلعة للبيع، فإما تزرعه أو تأخذه من جارك، واللحم يأتي من الحيوانات التي نربها في الفناء، نظام كامل للاكتفاء الذاتي من الطعام، من منازلنا، وإلى منازلنا.

قبل صلاة المغرب، موعد اجتماع العائلة على الطبلية لوجبة أخيرة، تفرغ النساء من مهامهم، تذهبن للاستحمام واحدة تلو الأخرى استعداداً لعودة الرجال، وبعد صلاة العشاء، يذهب كل المنزل إلى نوم عميق.

في أسبوعي السنوي المميز، أمتقل من الدوار إلى بيوت عماتي، أرى لمحة من كل بيت، وأعيش نسخاً من هذا اليوم، ففي بيت عمتي نجات، كان هناك الجبن الملاوي الذي تصنعه بيدها، وفي بيت عمتي فادية كانت الزبدة، أما عمتي مديحة، ففناء منزلها الداخلي يتوسطه شجرة كبيرة يسكنها الحمام. بضع سنوات تمضي، العام كان ٢٠١٠ عندما مرض جدي وطلبنا لزيارته، رحلتنا بالسيارة هذه

المرّة لم تكن طويلة، وغطى الطوب الأحمر ما كنت أرى من أراضٍ زراعية خلال رحلتنا السابقة، شوارع قرينتنا لم تعد مألوفة، حتى تبينت شكل الباب الأمامي للدوّار. دخلت لأجد أن الفناء خلا من الحيوانات، بعد بناء أحد أعمامي المقيمين في القرية بيتاً من الطوب الأحمر، كان يشكل طريقنا إلى الدوار معدية لم تعد موجودة بعد تكرار حوادث الغرق، فاستبدلتها السلطات بكوبري.

توفي جدي بعدها بعامين، وصارت الأرض تحت رعاية أعمامي المقيمين في قرينتنا، بينما انتقلت جديتي إلى القاهرة تحت رعاية أعمامي المقيمين فيها، في محاولة منهم توفير حياة أفضل لذويهم، أتى علينا عام لم يرسل فيه أعمامي حصتنا من المانجو، استفسرنا فجاءت الإجابة بأن المحصول لم يتحمل ارتفاع درجة الحرارة فاحترق في الحقل، ومع ارتفاع الملوحة في مياه الري، صارت تحدد الدولة حخص ري للمزارعين.



رثيفة © إيمان عماد الدين

لم يعد العيش في الدوار محتملاً بلا مكيفات للهواء، فالمازوح تنشر هواءً ساخناً، فزود أعمامي كل غرفة بجهاز، فصارت نساء العائلة تلزم كل غرفتها تحت رحمته، تغيرات تجعلني أنساء، أين قريتي وأين ما بنته جديتي؟

القاهرة بالنسبة لها وفرة في كل شيء، رؤية لما هو أبعد من الأفق الظاهر من أعلى سطح الدوار، الكثير من أنواع الطعام، وأشكال طهيته.

توابل غير مألوفة تجعل طعم الطعام ولونه بعيداً عما تعود عليه حاسة التذوق لديها، فققدت شهيتها وزادت حدت تعابير وجهها عند رؤيتها المأثرتنا.

رغبنا في توفير وسائل الراحة، جعلت الملل يتخلل روحها تدريجياً، لم تعد تشرف على الطعام، ولكن إحدى هواياتها المفضلة حتى الآن هي مهام الغسيل «النشر، الجمع، والتطبيق» والتشديد علينا فرداً فرداً لنحملها إلى غرفتنا.

لا زالت تسلل إلى المطبخ أحياناً في أوقات انشغالنا لغسل الصحون أو لتأتي ببعض من رؤوس الثوم لتقوم بـ «تفصيلها» خلال مشاهدة فيلمها المفضل على الإطلاق «عوكل». لا زالت رثيفة تبحث عن سلطتها، عن نفسها داخل منزلنا، ونحن نحاول باستماتة مساعدتها. «صباح النور» حملتها لتعلمني أنها ما زالت هنا، ما زالت تشاهد التلفاز على أريكتها، كانت أريكتنا، صارت أريكتها. «مش هتفطري»

حملتها لتخبرني أنها تهتم بصحتي. «هترجي النهاردة ولا هتباتي برا» هكذا تطمئن على حالي.

«مش هتستحمي» طريقة في إخباري أن مظهر شعري يزعجها. «مش هتتجوزي؟»

لا تترك لي مجال لاستفهام ما خلف هذه الجملة لتكمل، «يعني هما اللي اتجوزوا خدوا ايه، خليكي». لها جملة لكل مرة تريد ان تخبرني بشيء. بوجودها في صالة منزلنا في القاهرة، تخبرني بالكثير دون أن تتحدث.

طريق أسلفتي م مهد يشع سخونة، لكنه أقصر إلى قرينتنا، أسواراً على جانبي الطريق تعيق المشهد الأخضر، قلة الخمر واندثار عربات الكارو، نقص محصول المانجو، أسلاك كهرباء متشابكة على أسوار البيوت وأطفال داخل البيوت ممسكون بهواتفهم المحمولة، سفر أشخاص وموت آخرين. بوجودها على مسافة خطوات مني، في القاهرة، تخبرني رحلتها لونها أحمر كالطوب، ورائحتها كحرق قش الأرز، وملبسها كزوجة العرق على جلد عمي تحت شمس حرارتها ٤٥ درجة، وطعمها يحمل مرارة مانجو لم تتضح. وجودها يخبرني بدوار لم يعد لرثيفة مكان فيه.

صامدات على شط البرلس رانيا الصاوي

اشتاق دائماً رائحة الريف الذي يحرمني منها سكني في المدينة.

ولدت في القاهرة وتربيت فيها، بدأت علاقتي بالريف في أول أعوام عملي كباحثة بيئية عام ٢٠٠٧، بهرتني طبيعة الريف، المساحات المزروعة، الأرض الممتدة أمام البصر بأصناف الزراعات. زاد ارتباطي بهذه الأرض مع مرور الوقت، كنت في كل مرة أتذكر قول والدي: «إحنا فلاحين والفلاحين طيبين». كان أبي يعود في أحاديثه دائماً إلى أصوله الريفية، فهو المولود بمحافظة المنوفية، ورغم رحيله عن الريف وهو في سن الرابعة، لم تحمل ذاكرته سوى صور لزيارات خاطفة مع والده، إلا أن ذكرياته ساهمت في ارتباطي الشديد بالريف إضافة إلى تجربة العمل.

قادني العمل إلى منطقة البرلس من كفر الشيخ، مادة خصبة للاستكشاف، خلال مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وجدت أن هذه المنطقة هي إحدى أكثر المناطق تأثراً بتغير المناخ، وأثر الظاهرة ظاهر على الأسماك في البحر والبحيرة التي تطل عليهما المدينة، ومؤثر سلبي على الوضع الاقتصادي لمجتمع الصيادين.

في كل زيارة إلى هناك، اكتشف أن فلان سافر وترك زوجته، وعلان سافر وترك أهله، وهو ما جعلني أفكر كثيراً في معيشة نساء «البرلس» دون أزواجهن، وكيف تستمر حياتهن في ظل مجتمع الصيادين الذكوري، حيث الاعتماد على عمل الرجال بصورة كبيرة.

مقاومات على الشط

حين تصل إلى مدينة البرلس، تصل إلى أنفك رائحة غريبة، يختلط معها رائحة الملح والسمك والزرع، والتعب والناس. تستطيع أن ترى البحر يلتقي بالسماء في مشهد مهيب. تبدأ من هنا حكايتي. حكاية امرأة تأتي من القاهرة على فترات بعيدة، لتقابل وتلاحظ وتدون وتقدم بعض النتائج. في طريقي إلى منزل مضيئي جالت في رأسي الكثير من الذكريات، منذ أن بدأت في الاتصال بمعارفي للوصول إلى بعض نساء المنطقة، إلى أن وصلت إلى هنا مروراً بعدد من المكالمات الهاتفية التي أجبت فيها عن الكثير من الأسئلة لأصل إلى هنا الآن.

قابلت أم محمد، امرأة في منتصف الثلاثينيات، لم تنل حظاً من التعليم الرسمي، سافر زوجها إلى إيطاليا منذ ٦ أعوام، لأجل أطفالهم الثلاثة المنتمين لمراحل تعليمية مختلفة. لم يعد زوجها في إجازة خلال هجرته ولا مرة واحدة، لكنه يرسل النقود من وقت لآخر.

«عشان كده أبو محمد سافر»، هكذا قالت أم محمد، وهي تحكي عن الوضع المعيشي، «قلة الرزق والمصاريف اللي كل يوم بتزيد واحتياجات العيال اللي بتكتر، البحر مبقاش زي الأول». أم محمد لا تعمل، لكنها مسئولة عن كل تفاصيل المنزل منذ سفر الزوج، تصحو صباحاً لتتهي عملها في المنزل سريعاً، تعد طعام، ترتب المنزل، ثم تهرول مسرعة لاستكمال أدوارها في أن تساعد الأهل في بيوتهم «علشان أنا الست والراجل» على حد قولها.

كانت أم محمد تتحدث بهدوء عن اشتياقها للحياة زمان رغم أن الحياة في بيت أبوها لم تختلف كثيراً، ولكن الآن هي مسئولة عن أطفالها، تعليمهم وصحتهم وشراء مستلزماتهم، ومتابعة مدارسهم. تفكر أم محمد في صورتها أمام عائلتها في حال حدوث أي شيء للأبناء أو تقصير في متطلبات المنزل، ما يجعلها دائماً تحت عبء الخوف من الوصمة المجتمعية، ويسبب لها شعوراً مستمراً بالضيق. ما يزيد الضغط عليها هو أنها لا تستطيع التعبير عن هذا الضيق، أو حتى التخلي عن هذه المسؤولية. تشتاق أم محمد لزوجها، ولأيام كان زوجها يحمل هو الأعباء عنها.

قابلت أيضاً أمل، حاصلة على دبلوم وتعمل من المنزل في أعمال منزلية بسيطة، يمكن إدراجها تحت بند الصناعات الغذائية، «بعمل عيش، وجبنه، وبخلل سمك».

تعيش أمل مع أسرة زوجها في نفس المنزل، لديها ولد وبنات في التعليم العام. سافر زوجها إلى الخليج ويرسل المال بانتظام، «ولكن الحوالة لا تربى العيال ولا تفسحهم، ولا تودهم عند الدكتور يا أبله». أمل تتحمل كافة المسؤوليات، الطعام، التعليم، الدكاترة، المذاكرة، وشغلها وشغل البيت رغم وجودها في بيت عائلة الزوج، «أصل هنشيل الكبار حملنا؟ أهم مراعيين العيال»، حسب تعبيرها.

يقوم أهل زوج أمل بالإفناق عليهم دون انتظار أموال من زوجها، وتقوم هي أيضاً باستكمال ما تشعر بأنه ينقصها من عملها البسيط التي تقوم به من المنزل. تحكي أمل عن عادات وتقاليد القرية وقد ضربت مثل بأنها وباقي نساء العائلة يساعدن بعض في الأعمال المنزلية تحت إشراف الأم الكبيرة (حماتها).

بيوت الصمت والانتظار

من خلال تحليلي لروايات السيدات الثلاثة، برزت عدة موضوعات رئيسية متكررة، كان أبرزها قلة الصيد، الأمر الذي أدى إلى موجات هجرة وسفر بين الصيادين، سواء عن طريق عقود العمل أو الهجرة غير الرسمية.

والتي أرجعها أحد شبوخ القرية إلى «سخونة المياه في البحر والبحيرة، والتي يتخلى السمك بموت أو يهرب ويخلف بعيد»، وهو أمر أكدته الدراسات السابقة حول تأثير تغير المناخ على الثروة السمكية في مصر.

يقول الرجل: «واللي بيوزد إحساسهم بالمشكلة الصيد الجائر للزريعة من الصيادين، وإنشاء عدد كبير من المزارع السمكية التابعة للحكومة مثل بحيرة غليون أو للمستثمرين». هذه العوامل شكلت نسيج حياة سيدات البرلس في ظل غياب أزواجهن. أظهرت المقابلات أن غياب الأزواج يفرض على السيدات تولي مسؤوليات قيادية وإدارية ومالية كاملة لم تكن جزءاً من أدوارهن التقليدية.

اتفقت النساء على لعبهن أدواراً جديدة مثل إدارة الميزانية المنزلية، اتخاذ القرارات المالية، بما تشمله من قرارات يمكن أن تكون جديدة عليهن، كالتعامل مع الجهات الخارجية مثل المدارس، الأطباء، المستشفيات والتي يمكن أن تتضمن الجهات الحكومية وإنهاء الأوراق، وأيضا اضطراهن البحث عن مصادر دخل إضافية.

ورغم أن سفر الزوج كان لسبب اقتصادي بالأساس، إلا أن الظروف اضطرت بعضهن لتوفير دخل إضافي، خاصة في فترات تأخر أموال الزوج أو قلة تلك الأموال. كما لاحظت في أحاديثهن جميعاً أن تربية الأبناء هي التحدي الأبرز، حيث تقوم الأم بدور الأب والأم معاً، ويظهر ذلك في كلامهن عن التربية والتأديب، الدراسة والمذاكرة، الفسح، وإشارتهن إلى الأجداد كقائمين بدور الأب أو كمساعدين.

وان كانت تظهر بعض المشكلات من حين إلى آخر، تصف أمل أسبابها بـ«دلع» إحداهن، أو غير أخرى، لكن الوضع في الجمل مرجح.

وحين تطرق الحديث عن ظروف سفر زوجها وهل سيعود قريباً أجابت بمنتهى الهدوء، «معرفش يا أبله، تكلفة السفر عالية، وده ممكن يبقى حمل علينا». في نفس الجلسة، قابلت أيضاً سعاد، في منتصف الثلاثينات، لديها أربعة أبناء وأب كبير في العمر، وتعمل في خدمة المنازل في المدن الكبيرة بعد سفر زوجها إلى إيطاليا.

يرسل زوج سعاد المال إليها كل فترة، بسبب ظروف شغله غير المنتظمة. حكّت سعاد عن ظروف سفر زوجها تحفظ في سرد التفاصيل، ووصفته بأنه الخيار الأخير المتاح، «بعد ما ضيقوا علينا في الرزق»، تقول عن نفسها «حاولت العمل في أكثر من مهنة، إلا أن خدمة البيوت أسهل حاجة، وبعيدة عن البلد». تقول سعاد عن الأعمال المتوفرة في قريتها: «ميسمحوش لينا نصطاد، والبحر وحش، وأنا عندي عيال».

تعمل سعاد في عدد من المنازل في منطقة كفر الشيخ وسيدي سالم بصورة منتظمة، وأكثر ما يهيجها أن توصي بها إحداهن لأخرى لتنظف لها منزلها في موسم، وهو ما يعني دخلاً ثانياً أو «رزق مش معمول حسابه»، على حد قولها. تكتمل سعادتها حين يمر الشهر دون أن يمرض أحد الأبناء، كونه يعني في العادة أن تتخلف عن عملها، وبالتالي دخل أقل، ومصاريف مرتبطة بالعلاج، أي عبء أكبر على دخلها المحدود الذي يعينها على متطلبات المنزل وأولادها وعلاج والدها.

لا تحمل هؤلاء النساء لافتات، لا يرفعن شعارات، لكنهن يمارسن المقاومة كل يوم. مقاومة الفقير، والوحدة، والمناخ المتقلب، ونظرات الناس، والمجتمع. في مدينة البرلس، حيث تغير المناخ لم يغير فقط الطقس، بل غير شكل العلاقات، وموازين القوة، ودفع النساء إلى المقدمة رغمًا عن الجميع.

وتكشف المقابلات الثلاثة عن صورة معقدة ومتعددة الأبعاد لحياة سيدات البرلس، فهن انتقلن من دور الزوجة العادية أو المفعول بها إلى دور فاعل، فأصبحن داعمات للأسر في مواجهة غياب الأزواج. وتبرهن قصصهن الفردية على قدرة تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية على إيجاد نماذج نسائية تتميز بالقوة والمرونة، تتجاوز التحديات وتتكيف معها.

ما وراء البحيرة وصمود النساء

لنساء مجتمع الصيادين بالبرلس أن العديد من الأزمات، أكثرها وضوحاً أزمة التغيير في لعب الأدوار، فأصبحت المرأة هي اللاعب الرئيسي والمحرك الأساسي للأحداث. في الماضي كان الرجل في مجتمع الصيادين هو مصدر الدخل الوحيد، تغير الأمر مع سلسلة من الأزمات الاقتصادية العالمية التي بدأت في عام ٢٠٠٨، وأدت لارتفاع أسعار الوقود والسلع، وازدادت في عام ٢٠١٦ بعد تعويم الجنيه المصري، وتفاقت بعد أزمة ٢٠٢٠ مع انتشار وباء كورونا.

ضاعف الإحساس بأثر الأزمات المتراكمة في هذا المجتمع تحديداً، نقص إنتاجية الأسماك في البحيرة والبحر، نتيجة عوامل أهمها التأثيرات البيئية السلبية لتغير المناخ، ما دفع رجال المجتمع القادرين للسفر خارج البلاد، وترك هذه المهنة.

وجدت النساء أنفسهن وحيدات في مواجهة مجتمع منغلق، يعزز الهيمنة والسيطرة على النساء، ووجدن أنفسهن يلعبن أدواراً لم يعتدنها، ويكتسبن مهارات جديدة. أصبح مطلوباً من نساء البرلس اتخاذ القرارات الهامة للأسرة، واكتساب مهارات العمل الجماعي أو الفردي داخل المنزل وخارجه، إضافة إلى تغطية احتياجاتهن اليومية إلى أن يظهر للزوج المسافر دور. أصبحت المرأة في البرلس أما وأباً، وفي بعض الحالات تكون عائلاً كاملاً للعائلة، دون تقصير في دورها الاجتماعي كمرأة في مجتمع محافظ.

خلال رحلة دامت أكثر من ١٠ أعوام من التردد على المنطقة، استطعت أن أشهد هذه التغيرات في المجتمع. لطالما اعتقدت دوماً أن النساء في هذا المجتمع يستطعن التكيف مع الأوضاع المتغيرة بصورة جيدة، رغم هشاشتهن الاقتصادية والاجتماعية. رغم سطوة الرجال على معتقدات مجتمعهم، رغم الدور الشرس الذي يلعبه تغير المناخ في حياتهن.

اشتاق دائماً رائحة الريف الذي يحرمي منها سكني في المدينة، رائحة القوة والمقاومة في مشاهد من حياة أمل، وسعاد وأم محمد، في صمودهم في مواجهة تكالب عوامل اقتصادية ومناخية واجتماعية تجعل حياتهن أصعب، لكنهن يستقبل الصعوبات بأدوات طورنها مع الوقت ومع الحاجة.



الفصل الثاني

رحلات الطعام

مكايات حول عملية نقل الغذاء من الإنتاج إلى الاستهلاك وما بينها،
تتناول المسارات المختلفة والتغيرات الجغرافية والعمرائية المرتبطة بها



بين العداد و«طرمبة».. أثمان ندفعها من أجل الماء

رنا هاني

*تم تغيير جميع الاسماء للحفاظ علي السرية.

أعيش في منطقة تبعد عن ميدان التحرير نحو ٢٥ دقيقة، مكدسة بالبشر والمباني، قليلاً ما أصادف شجرة أمام أحد البيوت، ذلك هو الوضع منذ كنت في المرحلة الابتدائية. وقتها، كان أكثر ما يثير حفيظتي رؤية أصدقائي يذهبون إلى «البلد» في إجازة الصيف، أسأل أهلي لما لا نذهب للبلد مثلهم؟ فيخبروني بأننا «قاهريين»، هذه بلدنا ومانعرفش غيرها من جدودنا». مرت سنوات، تضاعف عدد الناس، وقلت الأشجار، ونحن ما زلنا أبناء القاهرة، لا نعرف سواها. بالصدفة رأيت صورة لمنطقة يكثر بها الخضر والنخيل، ولافتة تحمل اسم منطقتنا، أردت التأكد أنها ليست صورة معدلة، لكن العديد من الصور ظهرت بنفس التكوين لنفس المنطقة: أراضي زراعية يحيطها جذوع نخل عالية، وبيوت لا تزيد عن دورين موزعة بينهم. هذا يعني إننا كما مجتمع ريفي، وهذا يفسر بدوره التشابه في العادات والأفكار والتقاليد بيننا وبين الريف.

لأثأكد، كان لا بد من سؤال جدي، انتظرت وقتاً مناسباً، كما مرة شاهدت فيها أبيض وأسود حينما رأيت اصطفاً الفلاحات حول إحدى الصنابير، ملء الجرار بالماء، رأيت الوقت مناسباً فسألت: «هي دي منطقتنا يا جدي؟». وإذا بها تؤكد، وشعرت بألفتها والحنين يغلف عيونها حين رأت تلك الصور، «إحنا كما فلاحين، والغيطان حوالينا في كل مكان، وعندنا عمدة ودوار، عارفة عميلة فلان؟». أردت: «أيوة مش دول اللي في المكان الفلاني»، تقول: «أهو جدهم كان العمدة، وبيتهم ده كان الدوار، بصي على شكله وأنت معدية، هتلاقيه زي اللي بيظهر في الفيلم ده».

مرّت علينا فترة كانت فيها المياه العمومية كثيرة الانقطاع، وقتها كنا نستخدم مياه من مصدر آخر لكل شيء عدا الشرب والطبخ، عرفت بعدها أنها مياه الطرمبة، واحدة من علامات المناطق الريفية في مصر.

مجتمع ريفي، أراضي زراعية، فلاحين، طرمبة مياه، ومشهد الفلاحات حوالين الصنبور، عناصر اتحدت وشكلت فقاعة حول رأسي فرحت أتساءل، «كانوا يبيعوا المياه منين وقتها؟».

منذ وعيت على العالم وبيتنا به مياه، فلتر ٧ مراحل صنابير المنزل، لتنقية المياه، وإذا حدث شيء للفلتر، إذا بنا نصيح وتندمر عن أضرار التلوث. ماذا عن عائلتي الممتدة إلى تلك الحقبة الريفية، هل كانوا يمتلكون فلتر ٧ مراحل؟ هل امتلكوا صنابير مياه داخل منازلهم بالأساس أم كانوا معتمدين على الصنابير العمومية وطرمبات المياه.

أجريت أربع مقابلات مع رجال ونساء من أفراد أسرتي الممتدة، ممكن عاصروا تلك الحقبة، لمعرفة طرق حصولهم على مياه صالحة للشرب، لاحتياجات حياتهم اليومية خلال هذه الرحلة، وهذا ما توصلت إليه.

طرمبة طعمها حلو

ربات بيوت في ذلك الوقت كانت تجمعهم الجيرة، ومعاونة عدم توافر مياه حلوة صالحة للشرب، الأكل والاستحمام..

مع صباح الديكة تدب الحياة في المنزل، بعد صلاة الفجر، يُقسّم شغل البيت وطلباته، طلبة الفترة الصباحية يأكل إفطاره ويتوكل على الله، أما طلاب الفترة المسائية، فيستيقظ في نفس الوقت لإنهاء مهامه المنزلية، وعند انتهاء مهام الخبز ورعاية الطيور، يأكل طعام الإفطار ويذهب إلى مدرسته، في نفس الوقت يعود طلبة الفترة الصباحية، لاستكمال ما تبقى من طلبات المنزل.

كان نظام معظم البيوت في منطقتي متشابه، ومصادر المياه واحدة، طرمبات تم دقها في الدور الأرضي من كل بيت، لم يشك أحد من هذا المصدر، أخبرني جدي لأبي: «كانت الماية طعمها حلو والله».

لا أعلم هل طعم المياه حلوة فعلاً، أم أن سهولة الحصول عليها وانعدام التكلفة المادية لوصولها إليهم ما جعل طعمها حلو، عقلي يرحح السبب الثاني، ذلك أن مياه الطرمبة مياه جوفية، فهي بالتأكيد بها بكتيريا وفيروسات، كما أنها لا تمر بأي مراحل تنقية، لذلك تزيد فيها نسب معادن ضارة كالرصاص والزنك إلى مستوى خطير، هذه معلومات لم تكن جدي وأقربائها يعلمون عنها شيئاً آن ذاك، أما الآن، مع عدم استخدامنا لهذا المصدر، فلم تعد ذات نفع.

بحسب جدي، فاعتادوا استخدام مياه الطرمبة، ثم سمعوا في أحد الأيام من نصيح على الراديو بضرورة استخدام صنابير المياه العمومية، المتوفرة المنطقة للشرب والأكل، كونها أكثر أماناً من مياه الطرمبة، وطعمها أفضل.

لتساؤل حول إذا كان هذا التجاهل واج أم أن ذاكرتها جردتها من ذكريات الألم لصالح ذكريات الأيام الحلوة واجتماعها بأصحابها وإتاحة المياه دون أعباء مادية.

من عليه الدور

كانت جدتي قادرة على اختيار أحد أولادها لتلبية متطلبات المنزل، وتقرير من يخفف عنها أحمال المهام المنزلية: «كنت مقسمة عليهم الشغل، كان اللي عليه الميه مين؟». تأخذ لحظة للتفكير، وطيف ابتسامة بمر: «ممكن اللي عليها الميه مرة سلوى وممكن اللي عليه الميه رمضان، وممكن اللي عليه الميه محسن، هما التلاته» استغربت أنها لم تذكر كل أولادها، فسألها: «فين عادل ومحمد (ياقي أخوالي)». ردها أثار انتباهي، بما يعكسه من قدرتها على توظيف أولادها بما يناسبهم، ولكنها جعلتهم راضين بحكمهم ومتقبلين له.

«لا عادل ومحمد لأ، عادل عمره ما عرف حتى يجيب بيضه من الشارع ومش بيرضى يروح، كان بيتكسف لأنه اترني في مصر الجديدة ودخل مدرسة هناك، يعني بمعنى أصح، ماكانش له في المكان اللي احنا فيه ده صحاب».

عادل هو ابنها الكبير بعد سلوى، وعلى رغم أن معظم الأوقات، كان عادل وسلوى يقضيان وقتها مع بعضهما البعض، لكنهم اختلفوا في المدارس، سلوى انتسبت لمدرسة بجانب المنزل، وعادل انتسب لمدرسة بمصر الجديدة، هذا الأمر أعطى مساحة اجتماعية أكبر لسلوى في منطقتنا. أما عن خالي محمد، فتؤكد جدتي: «محمد الرياضة كانت واخداه وشغلاه، فكده كده ماكانش عنده وقت ان هو يملأ مايه عشان كان يلعب جودو ويسافر، كان مشغول، وبمعني أصح، ماكانش بيهون على أضيع مجهوده»، وبحسب جدتي، كان اخوته يتطوعون مكانه: «أخواته كانوا يقومون بالدور ده مكانه، ومعظم الوقت اللي كان بيقولي هروح مكانه رمضان».

رمضان كان أصغر أولادها والأقرب إليها إلى الآن، وكان دائماً ما يجتمع مع أصحابه في مشوار الصنبور العمومي، مثلها تفعل سلوى، عندما يأتيهم الدور.

رحلة الحنفية الترفيفية

تغير الروتين الحياة، ودخلت المنطقة في مرحلة جديدة كان لا بد من التأقلم عليها، مع الترويج لعدم صلاحية مياه الطرمبة للشرب والأكل صارت مياهها تستخدم لكافة حاجات المنزل دونهما، بينما تنزل السيدات من المنزل، ومنهن جدتي، لملء المياه من الصنابير العمومية، وما انطوى ذلك من قضائهن الوقت معاً.

بين وقت صلاتي الظهر والعصر تقريباً، يبدأ نداء الشبايك المجاورة لمنزلنا. «يام فلان أنا هروح املا» ترد أخرى: «استنيني هاجي معاك المايه خلصت، هنادي من عندي أشوف مين هيروح معانا». ومن بلكونة لشباك آخر، تتجمع نساء المنطقة، بجراكنهن، وتبدأ الرحلة للصنبور العمومي. تقول جدتي لأمي: «كان عندنا في المنطقة صنبورين للمياه العمومية، مملوكين للحكومة، عبارة عن جدار ميني وبه ٣ صنابير وأسفلها حوض، نضع البستلة (الحوض) أو الجركن بتاعنا تحت الصنابير، ثملا المياه، نشرب منها ونطبخ منها ونعيش منها».

في الحوض تتراص الجراكن والبستلات بأسبقية الحضور في طاوور طويل، ووقتها، تقول جدتي: «كا بنتجمع بقي كحريم هنمل، فنقعد نتحدث ونهرج ونهز عشان نضيع الوقت على ما يجي دورك». وعندما سألتها عن مكان التجمع والجلسة، كان ردها: «هناك في الشارع».

صار ملء المياه ضرورة لروتين الحياة، لكنه صار أيضاً مهماً للتفيس عن النساء خارج بيوتهن وبناء علاقات بين بعضهن البعض، تقول جدتي: «لو واحدة دورها سبق في الشلة، تقف تستنى لحد ما كله يملى ويحركوا مع بعضهم، زي ما راحوا زي ما جم».

هذه الروابط حولت حاجتهم إلى المياه الصالحة للشرب، من مشوار واجب إلى مجتمع يتكوّن، ويتعرف أفرادها على بعضهم البعض، فتتخطى المجموعة الاعتياد إلى الألفة والمحبة، يزيد الكلام فيتحول الطاوور إلى جلسة أهل وأصحاب، لتصبح المنطقة مجموعة من الأشخاص يعرفون بعضهم البعض، تكيوط العنكوب تشعب من بيت إلى بيت وتجتمع في نقطة أم، «حنفية الميه».

تتذكر جدتي الضحك والهزار وهي تحكي لي ذكرياتها، لكنها ذكريات جعلتني أفكر في مدى صعوبة هذا المشوار عليها، وعظامها وعضلاتها التي عانت بالتأكد من ثقل المياه. تجاهلها للألم الجسدي وجهني

«أحنا كمان كنا بنروح مش البنات لوحدهم، بس كانت الست اللي واقفة تخلصنا بسرعة اكمننا قرايب يعني»، كان هذا صوت أبي.

إذا ما كان دور الأولاد لملء المياه فيأخذون تلك الرحلة كذريعة للعب الكرة، والتهرب من مسؤوليات البيت، يذهبون لـ«حنفية الشغب» تاركين الجرادل لـ«امبراطورة الحنفية»، وأثناء ذلك يلهون. تقول جدتي عن تلك السيدة التي تدير حنفية الشغب «الست اللي واقفة الإمبراطورة بتاعت الحنفية ممكن تاخذ منك الطشت وترميه في التربة، ممكن تضربك ممكن تمسك في خناقك.. اه والله»، لكن لحظ، فكانت علاقتهم جيدة بتلك السيدة، فكانت تقف وتحرس على أن يحصلوا على الماء قبل الآخرين إذا أرادوا ذلك.

وفي ذلك السياق، فإن معرفة تلك السيدة يسّرت المهمة على الأولاد. لكنها لم تكن كذلك مع الآخرين، كان الجميع يتعد عنها، وحينما سألت عند تلك السيدة ومن أين لها بكل هذه القوة، كانت الإجابة أنها فتوة وعلى الرغم من أن الصنبور ملك للحكومة، ولكن هكذا كان النظام.

ما بعد الحنفية

كنت دائماً أسأل جدتي عن سر تمسكها بعلاقتها مع جيراننا، وتجمعهم للناسبات والواجب والأحزان، أتذكر حزن جدتي الشديد على وفاة إحدى جاراتها، وكأن أختها التي ماتت، ومازالت حتى اللحظة نتذكرها، اكتشفت خلال بحثي أن جيراننا كانوا صديقاتها اللاتي رافقنها في مشاوير ملء المياه على مدار ١٠ سنوات من وجود الصنبور العمومي.

كنت أعب مع أحفاد صديقاتها عندما يجتمعون في الشارع، وعندما صار الاجتماع في الشارع صعباً مع تقدمين بالعمر، بقي بينهن مكالمة هاتف كل يومين، وربما زيارة كل أسبوع أو اثنين للوصال واللقاء، مثلها تغير آليات حصولهن على المياه الصالحة للشرب، تغيرت طرق تواصلهن إن بقيت. صارت المياه الصالحة للشرب متوفرة في أغلب بيوت منطقتي منذ أواخر الثمانينات إلى التسعينات

البنات والمياه

«تقصدي انبي حنفية، اللي بتروحها أمي كانت هادبة، لكن الثانية كان الولاد بتقابل بنات عندها» كانت أمي من رواد «حنفية الشغب»، تلك التي يرتادها الشباب، وكانت على أطراف البر الآخر للنيل وتبعد عن المنزل قليلاً، فإذا كان دورها لملء المياه كان لا بد من ارتداء ملابس جميلة وتسريحة شعر مناسبة لهذا المشوار، ولا يهم بعد المسافة، فالطريق ينقضي بالحديث والضحك.

لا يجروء الشباب على الحديث مع البنات أو العبث معهن، لسابق المعرفة العائلية، لكن رؤية شغب الأولاد وسماع أحاديثهم يعطي الفتيات مادة ثرية للنميمة، وأيضاً إذا كان هناك لمحة إعجاب بين اثنين، يمكن أن تنتظر عند هذه الحنفية. تضيف زوجة خالي: «كانت فسحتنا نروح نملئ الماية بعد المدرسة انا وصاحبائي، نتمشى ونهزر ونضحك، كانت أحلى أيام».

تزامن حديثها مع تفكيري في تعريفها لـ«أحلى أيام»، حيث كانت المياه متاحة للجميع، لكنها ملوثة، وتسببت بمرض الكثيرين، بل وبعض الوفيات.

تخبرني عمتي: «ما كنتش بحب أروح أملا ميه، وبخاف من المنطقة اللي فيها الحنفية، وفي مرة روحت والجرادل المليون وقع على إيدي الشمال كسرهما»، تسكت قليلاً وتلّس يدها الشمال وتكلم بضحكة: «أنا لسة فاكراها».

الذكريات السعيدة التي لامستها من حكايات الجميع جعلتني أتمنى في لحظة أن أعيش تلك الأجواء، لكن اختيار عمتي لتلك القصة للتعبير عن الأذى أفاقتني.

تقريباً، فبعد انتهاء الحرب (حرب ١٩٧٣)، وتغير القيادات السياسية، أصبح من الهام إنشاء بنية تحتية لأحياء القاهرة الريفية، فدخلت مواسير المياه والماتير للبيوت، بحسب أقوال جدتي لأبي. بينما أخبرتني جدتي لأبي أنه لم تعد هناك أراضي زراعية، تحولت جميعها لبيوت وعمارات تم بيعها لأفراد المنطقة، أو لشركات الاسكان، واكتفيت بالقول أن الصنابير اختفت.

لكنني تبتعت مصائرهما، ووجد أن مصير «حنفية الشغب» مثير جدا للاهتمام، كانت المنطقة ترعة فتم تركيب صنابير ماء صالحة للشرب بجانبها لمدة ١٠ سنوات، ثم ردمت وأصبحت ملعب كرة للترفيه، بعد ذلك تم هدم الملعب، ولفترة طويلة كان خراباً، ثم أصبح مسطح أسفلي واسع بلا أي معالم ضمن الطريق، والان مع الإصلاحات، تحول لما يشبه ميدان صغير بشجرتين بلا أوراق.

عداد، كارت، وأنا

بعدما علمت كيف حصلت عائتي على الماء، حان دوري..

اسكن في الدور السابع في عمارة والمياه تصعد إلي، تحولت مشقة جلبها البدنية إلى عبء مادي، تحولت فاتورة المياه وقارئ العداد الذي كان يأتي كل شهر لتحصيل الأموال إلى كارت الكتروني لا يجب شحنه مرتين على الأقل شهرياً، ومع التطور تحول الأمر إلى محفظة إلكترونية اشحنها وانا جالسة في غرفتي، دون الحاجة للاختلاط بالآخرين، إضافة إلى تكلفة صيانة فلتر ال ٧ مراحل، لتنقية المياه التي سبق تنقيتها في محطات معالجة مياه الشرب. أدفع لصيانة هذا الفلتر كل شهرين على الأقل.

بالطبع لا أعلم من هم جبراني، ولا يجعني بهم شيئاً سوى جروب واتساب لتابعة اخبار صيانة العمارة، وجدير بالذكر أن المياه أصبحت ضمن العمليات التجارية، تبعاً في قنينات وتباع في السوبرماركت، يتم تسعيرها حسب مراحل فلترتها من الشوائب، وكلما زاد السعر تحسنت الجودة.

قبل بدء بحثي، ظننت أن ضرورة الماء لحياتنا جعلته على طول الزمن متوافر بسخاء للجميع، فلم تكن

هناك مشقة جلبها أو عناء، لكن الأمور في الحقيقة لا تسير بهذا اليسر، كان لابد من دفع الثمن حتى لو يكن أموالاً، فصحة وعمر النساء والأطفال تكفي. تضاءلت أهمية الصنابير العمومية بسبب الأمراض وتلوث المياه، ومع دخول شركة مياه الشرب والصرف الصحي في الصورة، بيعت الأراضي حول الصنابير لبناء عمارات سكنية، سواء كان ذلك لأهل المنطقة أم لغيرهم.

وفي أثناء ذلك، كانت هناك حركة حكومية لدخول مواسير الماء لكل البيوت، وبحلول ذلك تلاشت الصنابير من الأرض وحل مكانها أسفلت اسود. وأضحت الماء سلعة يدفع ثمنها في البيوت وتُشترى من محال البقالة.

حول كل صنوبر تكوّنت شبكة من العلاقات المجتمعية، منها ما زال مستمراً إلى يومنا هذا، فعلى الرغم من اختفاء الحنفيات، وانتهاء تجمعات النساء ما بعد الظهر للماء، كن يجتمعن تمسكاً بالعادة الذي خلقها الصنوبر، فلا وسيلة للتواصل وقتها إلا اللقاء، سواء كان ذلك في الأسواق، أو أمام البيوت ببعض من الترمس والفسار في الصيف، أو حول منقذ في الشتاء.

ومع الوقت وصعوبة التجمع، بقيت مكالمة تليفون وزيارة واجبة لفلان أو علان ما بقي لهم من هذه الروابط على وجه الأرض، ومن بعدها بقي المجتمع الصغير في ذاكرتهم يتمسكون به.

خرسانية تحاصر جسدي سارة الغباشي

في طفولتي، كان للنهر وجه آخر. كنت أمشي بجواره، أستشعر امتداده وعضوبته. كان ماؤه أعلى، أنقى، يجل انعكاس السماء ويحكي قصص المدينة، مدينة رأس البر بمحافظة دمياط. أما الآن، فقد تغير، المنخفض منسوبه، وزادت قذارته.

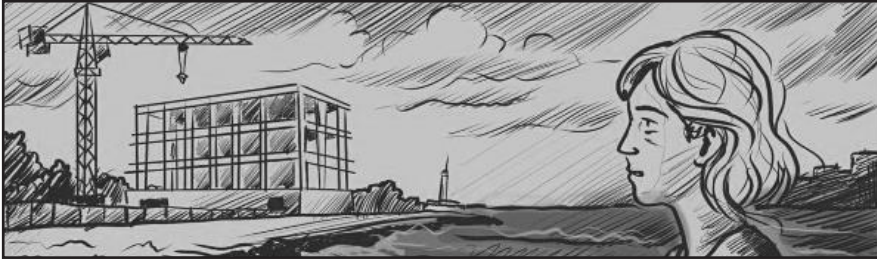
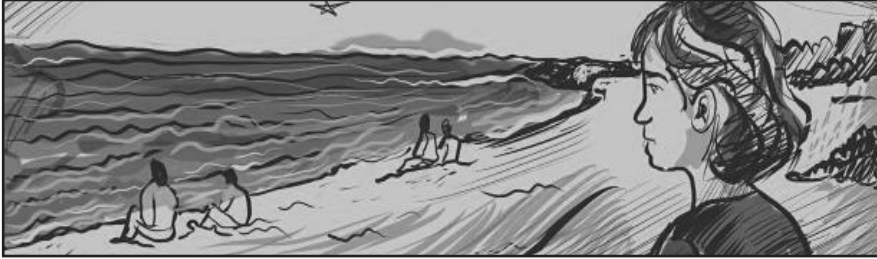
لم تعد تلك المساحات الممتدة بجانبه ترحب بالناس، فالحدائق التي كانت مفتوحة ومليئة بالحياة أصبحت مسورة، وكأنها تبعدنا عنها عمداً.

على مدار العقدين الماضيين، شهدت محافظة دمياط تحولات عمرانية وبيئية جذرية، اتخذت شكل توسع عشوائي في البناء الخرساني، وردم المساحات الخضراء. أرى ذلك كتجريف للعلاقة بين الإنسان والمكان، ولا يمكنني فصل هذه التحولات عن النظام الأبوي الرأسمالي الذي يعيد تشكيل الفضاء العام وفق مصالح ذكورية/سلطوية، ويقصي النساء من الحيز الرمزي والمادي في المدينة. وكأن المدينة قررت أن تدير ظهرها للأرض. بدأت البيوت تحاصر العمارة التي أسكن فيها من كل جانب، جدران إسمنتية تحل مكان الحقول، وتسد الأفق شيئاً فشيئاً. لم تعد نافذتي تطل على الشمس أو على الزرع، بل على حائط منزل آخر يختنق معه الهواء. غرفة نومي، كانت ملاذ الهادي، أصبحت تطل على نافذة مطبخ أحد الجيران، تحل روائح الزيوت والطعام محل نسمات الفجر التي اعتادها.

أصبحت أماكننا تُحتطف تدريجياً لصالح الخرسانات المتوحشة. حتى منطقة المشي «اللسان» في مدينة رأس البر، محافظة دمياط، في الماضي كنت أجد البحر والنهر يحتضنان المدينة، الآن أجد فندقاً كبيراً أغلق متنفساً لكل من يبحث عن الجمال والراحة. هذا التحول يطاردني من كل زاوية. الطبيعية التي كانت تحتضننا ضاقت علينا. اختفت المساحات الخضراء، وأصبح الإسمنت هو سيد المشهد.

أشعر أن المدينة التي كنت أعتبرها بيتي قد تحولت إلى مكان لا أعرف عليه، مكان يرفضني ويطردني بشكل مستمر وعنيف. لكن رغم كل هذا، احتفظ بالذكريات. أستعيد صوراً للنهر كما كان، للزرع الذي أحاط بنا، والمساحات التي كانت مفتوحة لخطواتنا وأحلامنا. ربما تلك الذكريات هي ما يبقيني متصلة بهذا المكان، رغم شعوري الدائم بالغرابة عنه الآن.

أرى في تنشيط واستعادة ذاكرتي الفكرية والجسدية فعل مقاومة ضد الغربة. لذلك قمت بكتابة وسجلت قصص خمس نساء من خلفيات اجتماعية واقتصادية مختلفة داخل دمياط (من عزبة البرج، كفر البطيخ، عزبة اللحم، ودمياط الجديدة)، محاولة لفهم وتحليل كيفية احتفاظ أجسادنا بعلاقة مع البيئة المحيطة بنا، في مقاومة التغيرات العمرانية في المدينة.



رسوم © سارة الغباشي

استخدمت أم محمد لفظة «البراح» كتعبير غير مباشر عن الفقد الجسدي والنفسي المرتبط بالمكان. «بقت البلكونة قدامها عربيات، ومفيش نفس»، قالتها «أم محمد»، لتشير إلى انعدام المسافة بين الجسد الأنثوي والعالم الخارجي، وانعدام الخصوصية التي كانت توفرها المساحات المفتوحة، والهواء، والطبيعة. «البراح» هنا ليس فقط مسافة مادية، بل مساحة للحرية، للتنفس، للحركة، ولإعادة إنتاج الذات.

كانت «أم محمد» تعمل في المزارع السمكية، واضطرت للانتقال إلى عزبة اللحم بعد إغلاق المزارع السمكية. تحكي: «بقت البلكونة قدامها عربيات، ومفيش نفس»، تشعر أن الحياة أصبحت سريعة، «زي الورق اللي بيتنفض»، هذه المرأة تمثل جسدا نزع من بيئته. التحول البيئي (لا سيما تأكل المزارع وامتداد الإسفلت) فصلها عن إحساسها بالأرض ككائن حي. دمياط نفسها أصبحت غريبة عنها. فقدان البراح الذي شعرت به بفعل البناء الجائر على الأراضي الزراعية تشاركتته مع أم فتحية في فقدانها للبحر. تحكي «أم فتحية» عن طفولتها وسط البحر، ومراكب الصيد، والعشش. ووصفت علاقة النساء بالمكان بأنها مركبة: «إحنا كنا بنغزل الشبك ونعد العيش للرجالة، بس إحنا كنا جزء من البحر برضه».

تقول «أم فتحية» إن الكورنيش الجديد «خفق الموجة»، وإن المدينة «اتحطت في قالب خرساني»، هذا التحول العمراني أفقدها إحساسها بالحياة البحرية. لا يمكن النظر إلى التغير البيئي كقضية عامة فقط، بل كمسألة تمس حياة النساء اليومية: التنفس، النوم، المشي، الطبخ، وحتى التفاعل الحسي مع العالم، الغبار، الضوضاء، وضيق السكن ليست ظروفًا محايدة، بل ظروف تمارس فيها السلطة على الجسد الأنثوي الذي يدفع إلى الداخل، إلى العزلة، وإلى الإنهاك.

الجسد كأرشيف: كيف نحفظ بالبيئة؟

تُظهر المقابلات التي أجريتها أن التغير العمراني لم يكن مجرد تعديل في الشكل البنوي للمدينة، بل كان فعلًا عنيقًا له أثر مباشر على الجسد الأنثوي، وعلى الحياة اليومية، وعلى أنماط الانتماء والذاكرة. يصبح التنقل من عزبة البرج إلى عزبة اللحم، أو من البيوت المطلّة على البحر إلى مساكن محاصرة بالضوضاء، ليس مجرد انتقال مكاني، بل انزياح في الذات.

اخترت محاوره ٥ نساء في هذا الموضوع، لأن المدن في الأساس تُبنى بمنطق ذكوري. الأماكن العامة - الميادين، الكورنيش، المقاهي، حتى الشوارع نفسها نادرًا ما تصمم لتستوعب وجودهن. لكن النساء، عبر التاريخ، لم يستسلمن لهذا الإقصاء. بل طورت تكتيكات جماعية لممارسة حقهن في المدينة ضمن أدوارهن الرعائية. في بعض المجتمعات، كانت مهمة جلب المياه من البئر أو النهر فرصة للخروج، للقاء، لخلق مساحة نسائية خارج جدران البيت. في دمياط، اختارت النساء «قعدة المصطبة».

المصطبة لم تكن مجرد جلسة عابرة. كانت فعل مقاومة يومي، طريقة لاحتلال الفضاء العام دون أن يبدو الأمر تمردًا صريحًا. النساء يجلسن أمام بيوتهن في آخر النهار، يتحدثن، يراقبن الشارع، يكن حاضرات في المدينة. هذا الحضور الجماعي كان يخلق أمانًا، وشبكة دعم، ومساحة للتفاوض - سواء حول الحياة اليومية، أو حول معنى أن تكوني امرأة في هذا المكان.

التخطيط العمراني الجديد لم يكتف بتغيير شكل المدينة، بل محا هذه التكتيكات النسائية. الشقق الضيقة المتلاصقة، الشوارع المزدحمة بالسيارات، غياب المساحات الانتقالية بين الخاص والعام، كل هذا جعل وجود المصطبة مستحيلًا، وجدت النساء أنفسهن محاصرات داخل الشقق، معزولات عن بعضهن، ومقصيات بشكل أكثر حدة من الفضاء العام.

فقدان البراح: الحصار الجماعي

هذا الحصار ليس شعوري وحدي، وصفت «أم فتحية» التحول العمراني بأنه «حاصرهم»، وأن المدينة «اتحطت في قالب خرساني»، مما حول المساحات المفتوحة - التي كانت تمتد بين البيوت وتحتوي علاقات اجتماعية نسائية - إلى جدران تطل على بعضها. في شهادتها، نرى التوسع العمراني لا يعيد تصميم الخرائط فقط، بل يعيد تشكيل أنماط الحركة، العلاقات الاجتماعية، وإحساس النساء بالانتماء. الشارع الذي كان بالأمس مساحة مشي، لقاء، وتبوية، صار اليوم «دوشة، وتكسير، وغربة» - كما عبرت «أم فتحية».

رغم تباين الخلفيات بيني أنا والنساء الخمسة - ما بين المدينة والسكن الساحلي والسكن في الريف أو التنقل ما بين الاثنين - إلا أن جميعنا عبرنا عن شعور بالخسارة المرتبطة بالمكان. جميع النساء أشرن بطرق مختلفة إلى الاختناق البيئي سواء الحسي أو المعنوي.

أنا لم أسأل عن أثر هدم مدرستي، أو هدم المكتبة العامة الوحيدة، عن اختفاء الحديقة أو عن تصوير البحر، وكأننا شفافين، قبولنا أم عدمه ليس له قيمة. لم نتحدث أي امرأة في المقابلات عن مشروع أو تطوير حدث بمشاركتها، بل عبرن جميعاً عن فقدان، انسحاب، أو تهيميش، هذا الفقد المادي يعيد تشكيل هويتنا الأثوية تأقلماً مع وضع نراه غير إنساني. وضع تقول عنه «أم سنية»: «البلد زي الست اللي احترقت وهي عروسة». هذا التعبير استوفيني للتفكير طويلاً، عبر عني بمجاز قاتل لم أتصور أن يصفني بهذه القوة، بدأت تخيله بالحرف: فستان أبيض واحتفال وأضواء واحتراق في صمت، ألم في صمت وذوبان بلا كلمة، والجميع مصطف يصفق ويزغرد، لا يتألمون من أجل العروس إلا بعد أن تتحول لكومة رماد، بعد فوات الأوان.

استقبلت المثال كإشارة مباشرة لمدى العنف الرمزي والمادي الذي تعرض له المكان، والنساء معه. تحكي «أم سنية» عن طفولة قاسية، ورجال مسيطرين، وسيدات مسحوقات. لكنها تنتقد أيضاً التحديث الحاصل الآن: «البيوت بقت عمارات، البحر اتردم، ومبقاش فيه ستات بتقعّد على العتبة». لتقاربنا العمري أنا والشاهدات «سلى» و«رقية»، تفهمت لما قد يكون هناك انقطاعاً شبه تام في علاقة الجيل الجديد بالأرض. لم يعد هناك زراعة، أو جنائن، أو حتى شوارع تصلح للمشي. الجسد الأثوي الجديد يعيش عزلة حسية، وتوتراً بيئياً مستمراً. تحل الصور والمجسمات محل الطبيعة، وتحول العلاقة بالمكان إلى علاقة بصرية استهلاكية، وليست جسدية تفاعلية. الطبيعة تحولت إلى «منتج» يتم الوصول إليه في رحلات أو عبر وسائل ترفيهية. كما قالت «رقية»: «كل ما أكبر، الأشجار بتقصر، والبحر يبعد».

أنا والنساء الخمس، دوناً وأرشفنا سرقة الحيز المكاني في المدينة - سواء كان نيلاً أو بحراً أو طيناً أو شمساً من شباك - لأننا عاصرناه في يوم ما، لكن ماذا عمّن سيكبرون على التوحش، على الاعتقاد وكأنه أمر مسلم به، لا يبدل عنه، أحياناً أنظر إلى الصور القديمة أو أسترجع الذكريات لأحاول استعادة شعور الحياة التي عرفتها هنا، لكن الواقع اليومي يصعب تجاوزه.

ربما تكون هذه قصة دمياط الآن؛ مدينة كانت تعرف التناغم بين الإنسان والطبيعة، لكنها تركت ذلك التناغم يتلاشى تحت وطأة التوسع العمراني. ومع ذلك، يبقى الأمل في أولئك الذين لا يزالون يحملون حبهم للأرض ويحاولون استعادتها بأي طريقة ممكنة.

تذكر «أم فتحية» الأيام التي كانت فيها «ريحة البحر بتوصل لحد شباك أوضتنا». تعلّمت الصبر والانتظار من صوت المياه. أجسد هنا يحفظ الرائحة، الصوت، الإيقاع اليومي للموج. «رجليا كانت بتغرز في الطين وأنا مبسوط»، قالتها «أم محمد»، وتفتقد تفاصيل الأرض: الرطوبة، رائحة الشبورة. قالت: «الطين النضيف اختفى»، وهو تعبير لا يتعلق فقط بمظهر الأرض، بل بطهر العلاقة القديمة بين النساء والطبيعة. كان الجسد الأثوي جزءاً من دورة الزراعة، التنظيف، والرعاية، ولكن مع إغلاق المزارع وردم الترع، تم نزع النساء تلك العلاقة مع الأرض، وتحولهن إلى مستهلكات في فضاء عمراني خانق.

تحكي سلمي عن نيل دمياط، الحدائق، صوت الطيور عند الفجر. «كنت بحب أمشي جنب النيل، وأرسم». أما الآن، فتقول: «اللون اتغير. البحر مبقاش أزرق، والجينة بقت خرسانة». تشعر سلمي أن المكان الذي تنتمي إليه يحى ببطء، ويعاد بناؤه دون روح، في قصة سلمي نرى أن الطبيعة أصبحت غير مرئية، غير قابلة للعيش.

تقول أم محمد: «جسمي كان يشيل، دلوقتي ظهري واجعني»، وهو تصريح يجمع بين الذاكرة الجسدية والتغير المكاني. النساء يعملن أكثر، يرتحن أقل، ويفقدن أدوات الراحة والمقاومة. الهواء لم يعد نفسه، والبحر لم يعد يهدئ، والبيت صار مساحة ضيقة. النساء العاملات في الأرض أو البحر كـ«أم محمد» أو «أم فتحية» لم يخسرن فقط مورداً مالياً، بل خسرن أيضاً هوية حيوية تشكّلت من خلال الجسد في علاقة مباشرة بالطبيعة.

الشعور بالغربة والقلق من التغير المكاني كان حاضراً لدى الجميع، لا يؤخذ رأينا في أي من القرارات التي تشكل يومي العادي أنا والنساء في مدينتنا متنوعة الطبيعة، مما يسفر عن غضب داخلي تشاركه إلى جانب الحزن والاختناق. قالت «أم فتحية»: «القرارات بتتخذ وخلاص. إحنا بنشوف بعدين وبتأقلم». في هذا التصريح تختصر علاقة النساء بالسلطة المحلية. لا يتم استشارتنا، لا يتم إشراكنا، بل نطالب فقط بالتكيف.

الدولة هنا ليست غائبة، بل حاضرة على نحو سلطوي، ذكوري، يُنفذ سياسات عمرانية تحو حياة النساء دون مساءلة.

خوارزميات توصيل الطعام بين أمي و «طلبات»

جنت عادل

ولدت في أواخر الثمانينات لعائلة ستتكون في نهاية التسعينات من خمسة أطفال أنا أكبرهم، وأب وأم وجدة للأم يتقاسمون عبء إعالة الأسرة الكبيرة. مع الوقت، تولدت خوارزمية غذائية توزع مهام شراء وإعداد الطعام وفقاً للمهارة، والسن، والجهد والخطورة، والمسارات اليومية الطبيعية من البيت وإليه، وبالطبع، الأدوار الجندرية الكلاسيكية للطبقة الوسطى المدنية في مصر في تلك الفترة.

كانت أمي مهندسة تلك الخوارزمية، والمسؤولة الأساسية عن متابعة تنفيذها، وتطويرها عند الحاجة، وعليها يقع عبء الطهو، تعيينها فيه جديتي. كانت تحرص حد التعنت على جودة ما نأكله. تشتري الدواجن البلدي وترفض البيضاء، الخضار والفاكهة في مواسمها، مستبعدة منها الذابل وما زرع في صوبة وبالطبع، المحمد.

اللبن المثلّب مرفوض، تفضّل عليه الجاموسي السائب من عند لبّان تختاره بعناية، ولا تتردد في الذهاب بنفسها لتويجه إذا قلت الجودة عن توقعاتها. حتى في الأزمات المالية، كانت تعتمد على البقوليات (العدس، البصارة، الفول الثابت أو المدمس)، وتفتن في إعدادها لتعوضنا عن غياب البروتين الحيواني.

كأكبر الأطفال وأول من تعلمت القراءة والحساب، بدء دوري في تلك الخوارزمية بالمشاوير اليومية إلى السوبر ماركت القريب، ثم تطور بالتدرج لمرافقة أمي في مشوار السوق، ومساعدتها في الطهو. في العقد الأول من الألفينات، طرأ تغييران كبيران، الأول، رحيل جديتي، والثاني، دخول ثقافة توصيل الطلبات للمنازل بيتنا.

حل العاملين في السوبر ماركت القريب محل صغار الأسرة في المشاوير اليومية، ثم صار بوسعنا بعد حروب طويلة مع أمي أن نطلب وجبات سريعة، خاصة إذا لم يعجبنا أكل البيت. ظلت أمي ملتزمة بمشوار السوق الأسبوعي من الخوارزمية القديمة، نساعدنا فيه بعد ملاحظة، وظل أبي ملتزماً بالمشاوير الأبعد والأقل تواتراً (سوق العبور في المواسم أو مشوار الجزائر).

في عقدي الثالث استقلت عن أسرتي، وصار عليّ تطوير الخوارزمية الخاصة بي، اكتشفت وقتها أن العمليات المطلوبة لإطعام شخص واحد (التخطيط ومتابعة لوزام البيت، ثم التسوق، والطهو، وأخيراً تنظيف الأواني) لا تختلف كثيراً عن المطلوبة لإطعام سبعة، باستثناء أن عبئها سيقع في النهاية، عليّ وحدي.

لم يعد الطهو نشاطاً يومياً، وصرت أميل للوجبات الجاهزة توفيراً للوقت والجهد. إن أطهو في يوم، لأصدقائي، أو لنفسي على سبيل التدليل، لا أشتري لوازمي الغذائية من الشارع، بل اعتمد على تطبيقات الطعام بصورة شبه كاملة.

بالنسبة لي، يعني المشوار الكثير من العناء الذي يبدو بلا معنى في وجود بديل أسهل: «لسه هاشوف هاليس إيه وألبس وأزل وأمشي في الزحمة ويمكن حد يسرقني ولا يتحرش بيا، أو اضطر أدفع أوبر رايح جاي، وعلى إيه؟» أقول لنفسي، وأفتح أليكيشن تلو الآخر بحثاً عما أريده، أدفع بالكارد، وخلال نصف ساعة يصلني حتى باب منزلي.

في خوارزمتي، تخلّيت عن هوس أمي بالجودة. أريد شيئاً لذيذاً وسريعاً، وفي نطاق ميزانيتي. لا وقت لدي لتقصي مصادر طعامي، ولا بال لحفظ المواسم، أو التخطيط لشراء لوازمي بالطريقة القديمة، وباستثناء الوعكات الصحية المتعلقة بالهضم والوزن، والوعكات المادية التي تضطرنني لإعادة النظر في أوجه إنفاقي عموماً، لم أكن لأخضع خوارزمتي للكثير من المسائلة، فهي سريعة وفعالة، وتسمح لي بالتفرغ لعملي، أو ببساطة «شراء راحتي».

كان هذا إلى أن فتحت بابي ذات يوم لوجه سحر: أول مندوبة توصيل أراها في حياتي. تمحست كثيراً لوجود امرأة في هذه الوظيفة، ثم تحوّلت الحماسة لأسئلة كثيرة عن طبيعة عملها وتحدياته، وكيفية تعاملها مع كل ما أتفاداه أنا من مشقة، حين أطلب طعامي عبر التطبيقات، بدلا من الذهاب لشرائه.

ذهبت أبحث عن سحر في فرع طلبات مارت القريب من منزلي. وجدتها مع مجموعة من زملائها أمام الفرع، ذكرتها بنفسني، وعنواني، وأخبرتها أنني أرغب في تحديد موعد مقابلة معها في سياق بحث أكتبه عن طبيعة عملها كأمراة في هذا المجال.

بالنسبة لسحر إذاً، توفر وظيفة مندوبة التوصيل مساحة معقولة من المرونة والحرية، وفي الوقت نفسه شيء من التوقعة لم يوفره لها عملها الحر في الحمامة: «لما كملت واشتغلت لقيت مفيش حد واقف على دماغى... بختار شفتاى وبنزل في مواعيدي... فأنا طول النهار لوحدي مع نفسي مفيش حد فوق دماغى»
لثماني أشهر، بدت الحسبة معقولة ومجزية، وسحر جادة ودؤوبة، سرعان ما وصلت للدرجة الأولى وثبتت فيها، إلى أن فاجأتها حصوات المرارة والقناة المرارية:

«لما وقعت وقعت في الشارع وأنا شغالة (..) كلمت زميلي خدوا الشغل بتاعي وصلوه، وكلمت واحد زميلي خدني المستشفى. كان فيه ضيق في القناة المرارية وكان فيه حصوة في القناة المرارية والمرارة نفسها، وكان عندي صفرا، وكان عندي تفنود. قعدت ٣ شهور تعبانة في المستشفى وكده»
آنذاك، لم تكن طلبات تقدم تأمينا صحيا ولا اجتماعيا ل «أبطالها»^١. هنا، لم يتخذ سحر من أزمته سوى عضويتها في نقابة الحمامين التي غطت تكلفة منظارين وجراحة، لكن الأزمة الحقيقية كانت في انقطاع الدخل، مرة أخرى، خلال شهور المرض «لأن أنا دخلي باليوم، معدناش مرتبات» تمر سحر على مرضها وموقف طلبات سريعا، لكنني أتوقف معه طويلا.

أنا أيضا مريضة مرارة، أعمل بشكل حر في سياق يفتقر للحد الأدنى من التوقعة، أقرب لعملها الحر في الحمامة. لا تغطي الاتفاقات والعقود التي أوقعها مع الجهات التي أتعامل معها (سواء في القطاع الخاص أو غير الحكومي) مسألة التأمين الصحي، ويظل حصولي على أجري رهنا بقدرتي على تسليم المطلوب مني بجودة معينة في فترة زمنية معينة، وبغض النظر عن حالتني الصحية والنفسية التي هي مسؤوليتي وحدي.

بعد تماثلها للشفاء، عادت سحر للعمل في طلبات مرة أخرى. بدأها المعتاد استعادت الدرجة الأولى، حتى تلقت، بنهاية العام، تكريما مستحقا من الشركة «أحسن سائقة ٢٠٢٤، عملولنا يوم فري، ودونا السينما وغدا وكده» - تقول بفخر.

عمل حر أم هشاشة؟

تحدثنا لدقائق أمام المارت، وقفنا في ظل شجرة كبيرة، وحكت لي عن نفسها. هي، مثلي، كاتبة وشاعرة، نشرت ثلاثة دواوين، وهي عضو في اتحاد الكُتاب المصريين، وعملت بالمسرح لفترة، انبهرت بما سمعته تماما، ثم حددنا موعدا.

في صباح ربيعي مشمس، جلسنا في كافيه قرب البيت. أهدتني نسخا من دواوينها الثلاثة، فشكرتها ووعدها بقراءتهم، ثم بدأت تحكي عما ساقها إلى هذه الوظيفة غير المألوفة.

مثلي تماما، ضاقت سحر بالعمل بدوام كامل في مكاتب الحمامة، وهو مجال دراستها. مثلي أيضا، حاولت مع العمل الحر لمدة ٦ سنوات. «الشغل لحساب نفسي وقت معايا ووقت مش معايا.. خلال الفترة دي كلها أنا ما عملتش حاجة لنفسي.. كله رايح رايح لأن الماديات ضعيفة جدا»

لكن الميزة التي وفرها لي الحظ وحرمتها منها، هي أنني لا أعول سوى نفسي، وبوسعي احتمال هشاشة العمل الحر وتقطعه بدرجة أكبر، بينما كان على سحر أن تجد مصدر دخل أكثر استقرارا لمساعدة والدتها.

فكرت سحر في العمل كمندوبة توصيل من البداية حين سألتها صديقة عما إذا كانت طلبات تقبل توظيف مندوبات بنات. زارت سحر المكتب لتسأل، ولما جاءت الإجابة بنعم، تشجعت وقدمت على الوظيفة، وقبلت. «لقيت كل حاجة مرحبة بيا.. لقيت الباب مفتوح» في طلبات، تعلم سحر أنها ستلقى عددا من الطلبات كل يوم، وستتقاضى أجرا بنهاية الأسبوع. تعلم أن أجرها يتحدد بناء على عدد الطلبات التي وصلتها، وأن أجرها عن الرحلة الواحدة يتحدد (وفقا لخوارزمية أخرى) بناء على درجتها (وتحدد شهريا وفقا لتقييمات مشرف الفرع، وتقييمات العملاء، ومدى نشاطها في الشيفت الواحد)، إضافة إلى ذلك، هناك مكافآت ومزايا أخرى:

«واحدة زميلتي في عيد الأم ادوها سكوتر هدية، ومفروض إنها تطلع هي وبنتها الصغنة عمرة، وفي العيد فرقوا علينا كلنا حكك وحاجات كده، ليهم حاجات حلوة بيعملوها الصراحة عشان يشجعونا ع الشغل، غير البونصات وكده»

هذه التوقعة تسمح باستمرار الحياة على مستوى اليوم والأسبوع، وكذلك على مستوى المسار المهني في المستقبل (كوتها تعمل في شركة تترك لها، ولو نظريا، مساحة من الترتي الوظيفي ومن ثم الاجتماعي).

١ للخدمات الطبية، لتغطية مندوبي ومندوبات التوصيل. قبل ذلك، منذ دخولها health tag تغير هذا في يناير ٢٠٢٥ حين وقعت طلبات مذكرة تفاهم مع إلى السوق المصري منذ ٨ سنوات، اقتصر تعويضات طلبات على مبالغ مالية في حالات الإصابة أو الوفاة الناتجة عن الحوادث في أيام العمل. (عام ٢٠٢٤). كان قيمة التعويضات ٢٠ ألف جنيه للإصابات، و١٢٠ ألف جنيه تمنح للورثة في حالات الوفاة). لا تغطي تلك التعويضات الإصابات التي تحدث في الطريق (من وإلى العمل، ولا أية إصابة أخرى بسبب طبيعة العمل (الإجهاد الحراري، الجفاف، مشاكل الفقرات والعضلات والجلد والجهاز التنفسي مثلا

إنهم هما المفروض يقفوا جميعاً. المناطق الشعبية وحشة قوي، قوي. ويبصولي باستغراب وازاي بنت تشتغل الشغل دوت. الولاد كانوا يقفوا ومنهم كان بيتريق عليا ومنهم كان ينادي عليا يا طلبات يا طلبات، حاجات كده كانت بتضايقني»

بشكل عام، شوارع القاهرة فضاءات رجولية، يختلف استقبالها للنساء باختلاف المنطقة والطبقة، وفي هذا كله، تظل الشوارع دوماً مساحات للتفاوض المستمر على الأمان. في الشارع، نخضع أنا وسحر (كما خضعت أمي من قبلنا) لنفس الضغوط والمخاطر، لكن من موقعين مختلفين: موقع امرأة تحمل الطعام لوجهة ما، وموقع مندوبة توصيل تحمل الطعام لوجهة ما. في حوارزمتها الحيوية، كانت أمي (ونحن معها) نتحرك من الموقع الأول، وتعتمد على الشارع ليحميها (ويحمينا) من نفسه، وفي هذا، ترتكز بدرجة كبيرة على الألفة والقبول الاجتماعي. بحكم استقرارها في نفس الحي لعشر سنوات (قبل الانتقال لآخر لعشرين عام وأكثر)، أصبحت وبناتها وجوها مألوفاً، لا يجرؤ أهل الحي على مضايقتهم ولا التخلي عنهم إن ضايقتهم غريب، خاصة، وهذه مسألة أساسية هنا، أنهم يعرفون زوجها أيضاً.

الألفة، والوجه الرجولي الحاضر في الأذهان (وبشكل أعم، الوضع الاجتماعي المقبول، كربة أسرة تعيش مع زوجها وبناتها) وفروا لها ولنا بعض الأمان في الشارع كفضاء رجولي لا يرحب بالنساء. بالمقابل، تتحرك سحر اليوم في الشارع من الموقع الثاني، موقع مندوبة التوصيل، وهو موقع فريد بحكم اقتصار هذه الوظيفة، تقليدياً، على الرجال. وبرغم خضوع سحر (المرأة) لنفس قواعد حركة النساء في الشارع، لكن شعار طلبات يجعل الشارع يراها لا كامرأة فقط، بل ك«ظاهرة» مختلفة عن آلاف النساء اللواتي يرحن ويبحثن في الشارع يحملن لوازمهن. هذه الاندهاش هو أداة سحر في التفاوض على الأمان. حتى المضايقات التي تتعرض لها لا تهاجمها كامرأة، بل تستعجب كونها امرأة ومندوبة توصيل.

أما أنا، ففي وضعي الحالي كمرأة مستقلة غير متزوجة، وغير قادرة على الاستقرار في حي واحد لأكثر من عام أو اثنين، سأتحرك في الشارع من الموقع الأول، لكن مع غياب كل الأدوات التي تمكنني من التفاوض معه. لا وجه رجولي في حياتي يخشى الناس بأسه حتى في غيابهم، ولا مجال لبناء الألفة أساساً مع الحركة المستمرة بين شقق الإيجار الجديد في ظل تغيرات اقتصادية متلاحقة، وبالطبع، لا شعار تطبيق يضغني في موقع الظاهرة لتصبح الدهشة نقطة انطلاق في التفاوض.

نساء في فضاءات رجولية

كانت سحر من أوائل النساء في هذه الوظيفة في مصر عموماً، والأولى والوحيدة في هذا الفرع. وضعها هذا في موقف استثنائي، بالإيجاب والسلب معاً. بفخر، حكيت لي كيف صبغت الدهشة من وجودها في هذه الوظيفة علاقاتها مع الجميع: مشرفها، وزملائها، وكذلك المارة في الشارع، وأصحاب المطاعم والمحلات، وبالطبع أمثالي من العميلات والعملاء. أخذت الدهشة صوراً تباينت بين الوصاية، والاستهجان، والتشجيع.

«لما كنت حاضرة المحاضرة بتاعت طلبات كل اللي قاعدين كانوا شباب. أنا البنت الوحيدة وكان المحاضر كان مقعدني جنبه لإني ما ينفعش أقعد جنب الشباب».

لم تقاوم سحر هذا الميل لـ«حمايتها»، بالعكس:

«شغلي كله بالنهار، ما بتشغلش بالليل، بحافظ على نفسي بالطريقة دية عشان محدش يضايقني بالليل». لكن الوصاية لا تأخذ دوماً هذا الاتجاه المرن، في بعض الأحيان، تتحول إلى اتهامات مبطنة، تستهجن وجودها في هذا المجال، و«تنصحها» بالابتعاد عنه:

«من فترة بواب لقيته يقولي أنا عايز أقولك نصيحة، قلت له اتفضل، قالي سيني الشغل دا وما تشغليوش، قلت له ليه؟ قالي عشان دا مش كويس، ومحدش يبص لك بصة مش كويسة. قلت له بالعكس محدش يبص لي بصة مش كويسة ولا أي حاجة. الشغل كويس وكل الناس اللي بقالهم ناس محترمة عمري ما شفت منهم حاجة وحشة بصراحة».

الشارع أيضاً يندعش من ظهور سحر في زي طلبات أو مع الـ«باوتش» (حقيبة حمل الطعام) التي تحمل شعارها. هنا أيضاً تباين طرق التعبير عن الدهشة بقوة، بين الفخر والعدوان، بناء على طبيعة المنطقة: «طبعاً قابلت معاكسات، طبيعي، بس مش جامدة قوي يعني. الأغلبية ناس كويسة. أنا بشتغل هنا في المنطقة عشان الناس هنا متفهمة جداً وبيشجعوني، فيه واحد مرة كان عايز يتصور معايا، وواحدة قالت لي بنتي بتقولك هي نفورة بيكي، قولي لطنظ أنا نفورة بيها».

تضيف: «فيه بنت مرة كانت عايزة تديني أي حاجة فراحت جابت فرع شجر وكتبت لي عليه إنها نفورة بيا، البنات بتاعت رسالة برضو لما بشوفهم في الشارع أحياناً يدولي بلونة.. كل دا بيرفع معنوياتنا قوي».

تستعرض سحر المفارقة في اختلاف التعامل معها في المناطق الشعبية: «لكن المناطق الشعبية لأ، مع

المستقبلية للوقت، بمعنى، هل يقتطع المشوار من وقت نشاط آخر يؤثر على الفرص المستقبلية في حياة أفضل، كالمذاكرة مثلاً؟

وفضلاً عن هذا، تمتاز الخوارزمية الحيوية بما تتركه للجميع من مساحة واسعة للتفاوض، هي في رأيي، على درجة كبيرة من التوازن، إذ تستمد ماما قوتها من كونها «ماما» ولها علينا حق الطاعة والبر، ونستمد نحن - كبناتها - قوة مماثلة من كوننا مسؤوليتها أولاً وأخيراً ولنا عليها حق الرعاية والبر أيضاً. لهذا تظل الفرصة مفتوحة للتفاوض وإعادة تعيين المهمة لشخص آخر، أو تأجيلها بالكلية لوقت أنسب، وفي كل هذا، نلتقي جميعاً في مصلحتنا المشتركة في توفير طلباتنا بأقل قدر ممكن من الحوادث والشقاء و«وجع الدماغ».

الطقس، الشارع، والتغيرات المناخية

جاءت مقابلي مع سحر بعد أيام من عاصفة ترابية. أعلنت الحكومة يوم العاصفة إجازة رسمية حفاظاً على صحة المواطنين وسلامتهم، لكن سحر، كسائر مندوبي ومندوبات التوصيل، وأغلب العاملين بالقطاع الخاص، خارج هذه المعادلة، برغم طبيعة عملها التي تعرضها لمخاطر التقلبات الجوية بشكل مباشر: «بالعكس احنا لو حاولنا نأخذ إجازة بيعملولنا مشاكل. يوم العاصفة قالوا على كل أو ردر من الساعة اتناشر ه جنيه زيادة، عشان الناس تنزل تشتغل، عشان يجبرك إنك تنزلي، تبصي للبنس وتقولي مانا أولى» .

السياسة نفسها (يد تلوح بالمكافأة، وأخرى ترفع سوط الحظر أو خفض التقييم لقلة النشاط) تتبع لحث الناس على العمل في الأعياد والعطلات الرسمية، وفي الظروف الجوية القاسية بشكل عام: «المطرة بهدلتي مرة وهدومي بقت بتخر مياه (...). خليت المشرف بتاعي قفلي الحساب وروحت، هقع ازاى مبلولة كده؟ هما بعد كده عملولنا جواكت ووتر بروف (...). بالليل كان الشباب بيقي فيه هوا قوي».

لكن مشكلة سحر الأكبر كانت ومازالت في العمل في الصيف، خاصة أنها لا تعمل إلا في النهار: «الشغل في الصيف سيء جداً فوق ما تتخيلي، الرطوبة وحشة قوي، شرب مياه كثير فوق ما تتخيلي، بتخلصي إزارتين ثلاثة أربعة طول مانت شغالة، والشمس طبعاً رهيبه».

خوارزميات عمياء

بعكس البشر، لا يندهب النظام الذي يوزع الطلبات على المندوبين من وجود سحر كامراً في هذا الفضاء. لا يراها كامراً أصلاً. تخضع سحر لخوارزمية رقمية توزع الطلبات بشكل عشوائي، لا يلتفت لوسيلة انتقال المندوب، أو المسافة، أو وزن الطلب أو طبيعة مكوناته، وبالطبع، لا يراعي القدرة البدنية، ولا النوع الاجتماعي.

«السيستم ما يفترقش ما بين بنت وولد، وممكن يوديني مكان بعيد»

ثماني شهر، كانت سحر توصل الطلبات مشياً - إذ لم تكن لديها دراجة، ولا كانت تجيد ركوب الدراجات أصلاً. لم يشكل هذا فرقاً في طبيعة الطلبات التي تلتقها، أو المسافات التي تقطعها. في بعض الأحيان، يمكن للمندوب/ة طلب الدعم، لإرسال مندوب آخر أو لإعادة تعيين الطلب لمندوب آخر، لكن الدعم (البشري) قلما يجيد عن السيستم (الرقمي).

وحدها العلاقات الإنسانية بين زملاء وزميلات الفرع الواحد يمكن أن تعيد توزيع الطلبات بشكل غير رسمي، لكن مثل تلك المناورات قليلة ولا يمكن الاعتماد عليها، كونها مرهونة بصدفة اتجاه مندوبين أو أكثر لنفس الوجهة في نفس الوقت: «أحياناً لما يكون (الطلب) بعيد قوي يشيلوا من عليا، بس دا حسب وجهة نظر المشرف، لو مش شايف إنها بعيدة ما بيرضاش يشيله من عليا».

وإذا رفض المشرف، فلا مجال للاعتراض، إذ يعني الامتناع عن توصيل الطلب خفض تقييم المندوبة أو المندوب، ما يعني أجر أقل، وطلبات أقل، وحرمان من المكافآت. «الدعم دا أسوأ حاجة عندنا». أنتبه للمفارقة في جملتها، وأعود للخوارزمية الحيوية في بيت أمي، فخوارزمية أمي بالغة الدقة والحساسية والتعقيد والمرونة، تتفوق بجدارة على خوارزمية التطبيق العمياء، رغم كونها، كأغلب أعمال النساء الرعائية، ليست مرئية ولا مدفوعة.

تأخذ ماما في اعتبارها عشرات العوامل قبل إرسال أحدنا لشراء لوازمنا؛ المسافة، وزن الطلب، وطبيعته (هل فيه سائل مثلاً؟)، وخطورة الطريق ذهاباً وإياباً (هل يستوجب مثلاً عبور شارع رئيسي، أو مهارات خاصة في الشراء والتعامل مع الباعة؟)، وطبيعة الطقس، وأولاً وأخيراً: التكلفة

هنا السؤال: كيف يقدم التطبيق الخدمة نفسها، في أي وقت، بـ ٣٠ جنيه فقط، بل ويحقق هامشاً ربحياً يصل إلى ٣٠٪؟ تخفض تطبيقات الطعام التكلفة بالتححرر من عدة أعباء محورية، أولها، عبء توفير وسائل الانتقال والتواصل.

الهاتف الذي تستخدمه سحر للتسجيل على التطبيق وتلقي الطلبات ملكها، اشترته من مالها، وتدفع رسوم اتصاله بالإنترنت، وصيانته أن تعطل، وشراء غيره إن سرق من مالها. كذلك، الدراجة، أو الدراجة البخارية: شراؤها، وصيانتها، وتزويدها بالوقود مسؤولية المندوب، وإن لم تتوفر، فيوسعه العمل مشياً على الأقدام، كما فعلت سحر قبل أن تشتري دراجتها، وتعلم ركوبها- على حسابها أيضاً، وهو ما يقودنا للعبء الثاني: التعليم والتدريب وإعداد الفرد المؤهل للعمل.

تقدم التطبيقات في بداية العمل عادة تدريبات قصيرة، تركز على الجانب الرقمي (كيفية التعامل مع التطبيق) والمؤسسي (نظام العمل في الشركة) والمهارات الاجتماعية (آداب التواصل مع العملاء والزملاء)، لكنها تنصل من المهارة الأهم على الإطلاق، والتي تقوم عليها فكرة التطبيق نفسه: التوصيل. ركوب الدراجات أو الدراجات البخارية. دفعت سحر نظير دروس تعلم ركوب الدراجة من مالها الخاص، ووقتها الخاص، خارج أوقات العمل الرسمية بالطبع.

العبء الثالث والمحوري في هذه المعادلة، هو عبء هشاشة الجسد البشري، وما يحتاجه للحفاظ على سلامته واستعادة حيويته. عمى الخوارزميات يقدم نفسه كحياد وتكافؤ للفرص. كل الناس سواسية، لا فرق بين الرجال والنساء، بين الراكب والماشي، بين شابة وكهل، بين من تعول نفسها فقط ومن تعول خمسة، بين بطلة كمال الأجسام ومريضة الاتزلاق الغضروفي، ولا فرق أيضاً بين كيس الشيبسي وقارورة المياه سعة ١٨ لتر. هذا العمى يعني التطبيقات من التعامل مع هشاشات الأجساد المختلفة التي تؤدي العمل، ويخفف سقف التفاوض.

وصحيح أن التطبيق يتدخل أحياناً لتحسين ظروف العمل، لكنها تدخلات مدروسة، ومشروطة بالحفاظ على هامش الربح: السترات المقاومة للماء التي وفرها التطبيق (بعد ضغط) للمندوبين مثلاً، هي في الوقت نفسه دعابة مجانية له، تحمل شعاره وتطوف به الشوارع ليل نهار.

التعاقد على تأمين صحي (محدود التغطية، أيضاً بعد ضغط) يؤنسن العمل، وإذا يحسن صورة التطبيق في السوق، ويجذب المزيد من العمال والمستهلكين على السواء. لكن في بلد كصر، كثافة سكانية عالية وأزمة بطالة مستمرة، وأزمات اقتصادية عنيفة، وأزمات اجتماعية عميقة، لا يمكن لمثل تلك التحسينات إلا أن تتوقف أو تنقلص بالوقت.

تضيف «الشمس دي أسوأ حاجة في الصيف. في الحر فيه مشكلة أكثر، المياه، عندي مشكلة من شيل المياه، مشكلة كبيرة جداً، وبتزيد في الصيف. كراتين مياه، المتاعه بتاعة المياه (تقصد قارورة المياه ١٨ لتر). هما في المارت عارفين كده فبطلب دعم بصراحة لإن عندي مشكلة في الفقرات ف شيل المياه بيتعيني».

بيدد كلامها حماسي الأولى لرؤية امرأة في مجال عمل جديد، وأتخيل نفسي مكانها، أنا التي لم تمرن في جيم، وليس لديها الكلفة العضلية التي تسمح برفع ١٨ لتر مياه لصعود سلم عمارة، بل لنقلها من باب بيتي للمطبخ، بدون إصابات خطيرة في مفاصل أو عمودي الفقري. أتخيل مرة أخرى، فعل هذا كله في ظهيرة يوم تتجاوز حرارته ٤٠ درجة. جسدي حساس للحرارة. ينزف أنفي في الأيام الحارة وأشعر بوهن شديد، وأفقد تركيزي ويعتل مزاجي. الحركة في شوارع القاهرة في نهارات الصيف غير محتملة، ولعل هذا أحد أهم أسباب اختياري للعمل من المنزل، فبحسبه بسيطة، سيكلفني العمل من أي مكان آخر ٢٥-٥٠٪ من دخلي، فأنا لا أملك سيارة، ولا أحتمل الحركة إلا بسيارة مكيفة ذهاباً وإياباً.

أفكر في المستقبل، في أثر التغيرات المناخية على كل هذا. مزيد من الموجات الحارة والأحوال الجوية القاسية تعني أن الاعتماد على تطبيقات توصيل الطعام، والسيارات الخاصة لن يصبح رفاهية.

بكم أشتري راحتي؟

بعد لقائي بسحر، أعدت النظر في خوارزميتي الغذائية، ربما للمرة الأولى. راجعت أرشيف طلباتي في الشهر الماضي. أكثرها كانت من المارت. سألت نفسي، لو ذهبت أنا لشراء طلباتي من المارت، كم ستكلفني الرحلة الواحدة؟ لحسن حظي، يبعد أقرب فرع للمارت نحو ٢ كم عن بيتي. أستخدم في العادة سيارة خاصة (عبر تطبيقي آخر) تقليلاً للجهد وتفادياً للمضايقات في الشارع، بمتوسط تكلفة المشوار ذهاباً وإياباً ٨٠ جنيه تقريباً.

في الأيام الحارة، سأحتاج سيارة مكيفة، وإذا ترتفع تكلفة الرحلتين إلى ١٢٠ جنيه تقريباً. عليّ أيضاً أن أختار وقتاً مناسباً، لا يأتي على حساب ساعات عملي، وأشطتي الاجتماعية والترفيهية، ويتفادى ساعات الذروة، والأحوال الجوية القاسية.

نهتني في مقابلتنا عن الامتناع عن وضع الطلبات في الأيام الحارة باسم الرحمة، عملاً بما ينتشر على وسائل التواصل بين الحين والآخر. عرفت منها أن هذا معناه أن تمضي نهارها كله في انتظار مرهق عديم الجدوى، فلا هي ارتاحت في بيتها، ولا هي تقاضت أجراً. أقلب الأمر في رأسي عشرات المرات. ربما لو قلت ما أطلبه في الطلب الواحد؟ ربما لو تفاديت ساعات الذروة؟ ربما.. ربما.. بالطبع هناك ما يمكن فعله على المستوى الفردي، وبالطبع، لن يكون كافياً.

لن يحميها من كل ما أتفاده أنا حين أطلب طعامي عبر التطبيقات. لن توفر خوارزميتي الصغيرة المعدلة ما تحتاجه سحر فعلاً: أجر عادل عن عملها، وسيلة انتقال مريحة، راحة مدفوعة في أيام الطقس القاسي، تأمين صحي يأخذ في الاعتبار طبيعة جسدها كامرأة ومحافظ مهنتها الحقيقية والمتزايدة بفعل التغيرات المناخية، أو نظام اقتصادي واجتماعي لا يراكم ثرواته بالاستثمار في اضطرارها للعمل في توصيل الطلبات أصلاً.

أو ربما، يعيدها إلى المسار الذي اختارته وأحبته: الكتابة، الشعر، والمسرح، والتصوير، ويضعها مكاني الآن، لتكتب قصتها بنفسها كما تنوي أن تفعل. في الماضي، كانت الخوارزميات الغذائية للبيوت المصرية ما قبل التطبيقات تنطلق في تخطيط استهلاكها من حدود الممكن والمتاح. لا مالياً فقط (ما يلزمنا ونستطيع شراؤه) فحسب، بل وزمنياً (توقيت وزمن الشراء والتوصيل) وعمرانياً (من أين وإلى أين وفي أي فضاء عمراني نتحرك وبأية وسيلة؟) وفيزيائياً (وزن ما نحمله وطبيعته)، ومناخياً (طبيعة الطقس) والأهم، حيويًا (هشاشة الجسد الإنساني). يحدث هذا كله على أساس من العون المتبادل.

وعلى عوارها الجندري بالقاء جلّ العبء على النساء، وبلا مقابل، كانت تلك الخوارزميات تسمح بالتفاوض بلا نهاية، وبدرجة كبيرة من المرونة، للوصول لصورة تراعي الجميع، ولو لاستمرار الحياة اليومية بأقل قدر ممكن من الحوادث/الأزمات.

الرحمة، الرشد، وإمكانية التفاوض والتراضي من شروط عمل الخوارزمية الغذائية الحيوية، وهي شروط بنيوية، لا يمكن الإخلال بها بدون هدم الخوارزمية نفسها، لأن الأسرة لا تستطيع استبدال أفرادها بأخرين أذكى أو أطوع أو أصحّ بدنياً، ولا تجرؤ أن تساومهم على احتياجاتهم الأساسية للمشاركة في شراء وتوصيل الطعام، إن فعلت، تصبح علاقات الأفراد التي تجعلهم أسرة لاغية، وبدون أسرة، تنهار الخوارزمية الحيوية تماماً.

الوفرة في القوة العاملة التوّاقة للعمل والجاهزة له بالفعل، «جيش احتياط العمل» بتعبير كارل ماركس، تفقد الأجساد التي يهلكها الطقس أو السن أو الإصابة قيمتها، إذ يمكن استبدالها في أية لحظة، وبلا تكلفة تقريباً، بأجساد جديدة قادرة على العمل.

العبء الرابع والأخير، هو تكلفة التفاوض مع الإرادة الإنسانية. منذ اللحظة الأولى، تقلص شروط العمل مساحات التفاوض مع إرادة الإنسان فيما يفعله إلى الحد الأدنى. تختار المندوبة منطقة عملها (إن توفر بها احتياج لعمالة إضافية) لكنها لا تختار العميل أو الوجهة أو حجم الطلب أو طبيعته. حتى التفاوض على العمل في مناورات نهائية حصراً، يقدم كامتياز «جندري».

مساحة التفاوض المتبقية بعد هذا «الامتياز» محدودة جداً، فقط حين تأخذ الإرادة الراضية طابعاً جماعياً يهدد سير العمل، أو تدفق الأرباح، يفتح رأس المال باب التفاوض بجذره، أولاً بالتلويح بسحب الامتيازات الموجودة بشكل مباشر وغير مباشر (التوبيخ، خفض التقييم، الجزاءات)، أو بتوفير امتيازات أكبر (بونص، أجر إضافي، تكريم).

التحرر من تلك الأعباء يسمح للتطبيقات بخفض تكلفة الطلبية الواحدة من ٨٠-١٢٠ جنيه (والرقم بالطبع قابل للزيادة بحسب المسافة بين النقطتين) إلى ٢٠-٣٠ جنيه، وهذا، لا يظل الاعتماد على التطبيقات - بالنسبة لي كمستهلكة - خيار مرجح وآمن فحسب، بل يصبح الخيار الأوفر من ذهائي بنفسني لشراء ما أريده في ظروف ترضيني.

ما العمل؟

قابلت سحر في بداية ربيع معتدل تخللته موجتان حارتان وعاصفتان ترايبتان. لم ألتقيها ثانية كندوبة توصيل، لكننا التقينا مرة أخرى، في بداية الصيف، هذه المرة ككاتبتين، أعطيتها روايتي، وناقشتها في دواوينها، وتحدثنا قليلاً عن المشهد الأدبي والثقافي، والمسرح، والحكي، وعضوية اتحاد الكتاب، وركوب الدراجات البخارية. تتعلم سحر ركوب الدراجات البخارية أملاً في استبدال الدراجة بها. مازلت أطلب لوازمي عبر التطبيقات، وأفكر، كل مرة، في خوارزمية أكثر إنصافاً، تأخذ جسدي سحر بعين الاعتبار، وتراعي في الوقت نفسه اعتماد دخلها، بالكامل، على عدد الطلبات في الشيفت الواحد.

ولكن حين قضيت يومين من العمل معهن، وجدت أن النظام العالمي متأصل في أبعاد وأصغر مكان على سطح المحروسة، قرية العونة، مركز ساحل سليم، في أسبوط. فكرت في مدى تشابه ما تعانيه نساء العونة، مع ما أعانيه أنا ابنة القاهرة من تمييز جنس، وما إذا كان التمكين الاقتصادي في بلادنا هو شكل من أشكال العنف القائم على النوع الاجتماعي، أفكار يترجمها سؤال بسيط: كيف غيرت مخلفات الرمان حياة هؤلاء النساء سلباً أو إيجاباً؟

رصدت الحياة اليومية للعاملات في وحدة إنتاج دبس الرمان بإحدى الجمعيات الأهلية في أسبوط، الجمعية التي كانت وراء تحويل ورشة جمعت ١٥ سيدة لتحويل مخلفات الرمان إلى دبس، إلى تعاونية تضم عشرات النساء وتبيع دبس الرمان في أسواق مختلفة. خلال وجودي في قرية العونة، لاحظت تفاعلات النساء مع بعضهن البعض، وتابعت سير العمل داخل الجمعية، وأجريت مقابلات تلفزيونية مع السيدة ه، إحدى العاملات في مشروع القرية لإنتاج دبس الرمان من مخلفاته.

إلهام وصديقاتها، نساء حلمن بالعمل ولم يجدنه بسبب قلة الموارد وصرف العمل، فكن أمام اختيار العمل بأجور زهيدة في التعليم، أو العمل بعقد مؤقت في إحدى الجمعيات الخيرية التي تعين أبناء الأسر الفقيرة. فوجدن في مصنع دبس الرمان الصغير فرصة لباب مختلف.

لا يختلف القطاع الزراعي كثيراً عن أي قطاع استثماري تتحكم فيه رؤوس الأموال، وأصول العرض والطلب، ما يجعل معاناتي ومعاناة النساء العاملات في الجمعية على درجة مخيفة من التشابه، فالتمكين، وتنمية المهارات، والترقي الوظيفي في هذا القطاع، يتطلب نفس القدر من الجهد والوحدة وصراع المواقع كما هو في كل المجالات، بما فيها مجالي أنا.

الترعة

تقع قرية العونة بين ترعتين من نهر النيل، لذا تعتبر الترعة بوابة الدخول والخروج للقرية، ومركز التجمع والترفيه - خصوصاً للنساء في الصيف - أو كما تقول ه: «أحنا بجان عندنا البحر، أينعم ليس كبير أسبوط (النيل) ولكن أهو ميه والسلام»، ولأن الطبقة تظهر أيضاً في المسطحات المائية، فترع قرية العونة لم تلحق بركب التنمية، ونجت من وباء «التبطين» الذي اجتاحت ترع مصر، وظلت في صورتها الطينية الأصلية، مما وصمها وجعلها مكب النفايات الخاص بالأراضي الزراعية، في الموسم وغير الموسم.

مع التغيرات التي طرأت على الطبقة الوسطى في مصر في العقدين الأخيرين، تفككت أغلب البنى الاجتماعية والاقتصادية والعمرائية التي سمحت بظهور الخوارزمية الحيوية، وتطورت بالتوازي، خوارزمية بديلة، تسعى لحل الأزمة اعتماداً على تكنولوجيا لم تكن موجودة من قبل: التطبيقات. لإنهاء تردد المستهلك بين الإبقاء على الخوارزمية الحيوية والانتقال للخوارزمية الرقمية، أكدت الأخيرة أفضليتها بالتدرج بخلق نسخة مضللة من الواقع، تفتح فيها حدود الممكن والمتاح بلا نهاية، لتصبح كل الأطعمة والسلع الغذائية أقرب وأخف وأكثر وفرة وتوفيراً مما هي عليه في الحقيقة، وكل وقت هو وقت مناسب للشراء.

أعفى هذا النساء من عبء هندسة وتنفيذ خوارزميات حيوية وتعديلها عند الحاجة، فحرق وقتهن وأذهابهن، لكنه في الوقت نفسه، خلق نمط استهلاك شره وبلا عقل، يستحيل إرضاءه بأية طريقة أخرى، ولا يحده سوى القدرة الشرائية: قدرة المستهلك على شراء السلع، ودفع رسوم الخدمة للتطبيق، وهو رهن بقدرتها على تحسين دخلها باستمرار.

يظل الجهد البشري هو التناقض الأساسي في الخوارزمية الرقمية، إذ يعترف به المستهلك، ويعترف به التطبيق، ولهذا يتوسع في التوظيف، ويتدخل بشكل مدروس لجعل الاستقرار في الوظيفة ممكناً، وينكرانه في الوقت نفسه، لأن المستهلك سيرفض الخدمة لو قدمت له بتكلفتها الحقيقية، وبالتالي، يتهرب التطبيق من مسؤولياته الوظيفية، كي لا يفقد ميزته التنافسية.

تأخذ الخوارزمية الجديدة طابعاً قاتلاً حين تدخل عليها آثار التغيرات المناخية، خاصة المتعلقة بتواتر الأحوال الجوية القاسية التي تهدد الجسد البشري العامل على الطريق، لأن تراجع دعم الصحة والتأمينات الاجتماعية، يعني أن يصبح السبيل الوحيد للحفاظ على الجسد البشري هو الرضا بالعمل المتاح تحت أي ظروف، لأن البديل هو الموت مرضاً، أو، لمفارقة المفارقات، جوعاً.

الرأسمالية.. في سلال رمان العونة

حنين شاهين

بدأت هذه التجربة، لتوثيق رحلة نجاح مجموعة من النساء اللاتي رأيتن يصنعن المستحيل، وكنت أظن أنهن يعانين من أنواع عنف مختلفة، نظراً لانتمائهن إلى مجتمع زراعي، ويعملن في أكبر سلة تصديرية للرمان في مصر.

دربت المنظمة ١٥ سيدة على طريقة تحويل مخلفات الرمان الى دبس، وبدأت النساء ترى فرصة تأمين دخل إضافي من خلال خلق معمل لإنتاج الدبس، للسوق العالمي والمحلي، وبما أن العمل جاء في إطار تمكين النساء، فنساء القرية تحمس وشمرن سواعدهن للعمل، وبعدها كن ١٥ سيدة، أصبحن ١٠٠، يعملن في فرز وتجفيف الرمان.

بدأت البنات العمل، لجمع كل الهادر في القرية، أو كما تقول ه «جادت بالموجود، اللي تجيب اللي متبقي في أرضها، واللي تعدي على أرض جارها تاخذ الفاسد، واللي تجمع كراتين، لحد معملنا اول ١٠٠ ازازة دبس رمان».

تحول يوم العاملات في الرمان من يوم امرأة ريفية، إلى يوم امرأة عاملة في مجتمع صناعي سريع. تصف ه يومها بصوت يملؤه قوة وإرهاق: «الشغل صعب وكثير، البنات، وأنا معاهم، من أول ما بنروح الوحدة، بنستلم الرمان ونفصله وبعدين نفصص ونعصر ونطبخ»، تضيف: «الفكرة في الحرارة والسخونة اللي المكان فيه، عشان بنقعد نطبخ مدة طويلة، وطبعاً الشيل والحط مجهود، اليوم مش يخلص» بحسب ما تصفه ه، قد يصل يوم العمل في الوحدة إلى أكثر من ١٧ ساعة «في أيام مش بشوف فيها عيالي»

التمكين الذي صدرته المنظمة للنساء هو التمكين الاقتصادي - والذي يعني بالبلدي - أنه عليكي عزيزتي المرأة أن تكسبي قوتك بنفسك، وأن تعملي مثل الرجل، لكن هذا ليس ضماناً لحصولك على نفس أجره، أو مكانته، أو بيئته الداعمة. ولن يقلل هذا من أدوارك الرعائية غير المدفوعة، ولن يقلل ضغط المجتمع عليكي ولو لمرة واحدة.

الرجال

في هذه الرحلة، نرى الرجل في ٣ نماذج، د.س، مبعوث المنظمة الدولية، المؤمن بالتمكين الاقتصادي للنساء بتعريفه النيوليبرالي، والذي يضع السوق في مركز الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ويربطه بمدى مشاركة النساء في سوق العمل والاقتصاد، وليس بتحقيق العدالة الاجتماعية أو المساواة السياسية. من هذا المطلق، شرع د.س في توفير كل فرصة يمكن أن تساعد الفتيات في تسويق وبيع دبس الرمان، من معارض ومعارف وشركات.

قرية العونة ذات ال ٣٨ ألف نسمة، قرية صغيرة في شرق محافظة أسيوط، قوتها الزراعية حوالى ٣٠٠٠ فدان، نصفهم يزرع بالرمان. في الموسم الممتد نحو نصف عام - من شهر ٧ الى ١٢- يسيطر الرمان على روح وعمل القرية. ومن المحصول تصدر القرية لعشرات الدول في العالم، ما بين الأوربية والعربية، مثل العراق وتركيا وفرنسا وسوريا وماليزيا، من خلال مكاتب وشركات تصديرية. لذلك لا بد أن يكون محصول الرمان عالي الجودة، وما أقل من هذا يعد «مخلفات»، فيكون مصيره إما السوق المحلي، أو على الترتبة مع القمامة.

ومع زيادة القمامة وارتفاع نسبة الرمان «الأقل من المستوى»، صار مستحيلًا أن تستمر الترتبة كمتنافس لنساء القرية، ومع ارتفاع الروائح، وزيادة الحشرات، صار حتى الدخول والخروج من القرية تحديًا.

النساء

نساء القرية هن نواة دبس الرمان، يتشابه يومهن مع يوم تقليدي لامرأة ريفية. صباح مليء بالنشاط والحركة من طبخ وخبز وتحضير لمدارس الأطفال، وظهراً بين أعمال المنزل والغداء، وليلاً تبادل للحكايات وبعض الراحة.

دخلت احدى منظمات المجتمع الدولي القرية بعد أن أصبحت جزءاً من هذه الطاقة التصديرية، لتمكين النساء ذوات الشهادات العليا من أجل التصنيع، منذ نحو ١٠ سنوات. أزمة مخلفات الرمان كانت أكبر شكوى في التدريب، وكل النساء أردن إيجاد حل لعودة المنتزه الخاص بهن، وتقليل حدة الذباب والحشرات والروائح الكريهة طوال الصيف.

هذا ما جعل د.س، المدرب الخاص بالمنظمة، يطرح فكرة تحويل مخلفات الرمان إلى دبس «حل سهل وله سوق، وشغلة بنات»، كما وصفه د.س على حد حكاية ه.

الطرح هنا كان طرحاً اقتصادياً بحتاً، تم اتخاذه على أساس السوق، وإتاحة الموارد، والطلب على المنتج. لم تفكر المنظمة أن التمييز الجندري بداخل هذه القرية الصغيرة قد يجعل من هذا الحلم عبئاً على العاملات بدلاً من باب لتمكينهن وحل لشكواهن. فمن أجل أي يكون هذا الحل مستداماً، كان لا بد من التقيد بقوانين السوق: ساعات عمل طويلة، وقدرة إنتاجية عالية.

النموذج الثاني هو مدير إحدى الجمعيات الأهلية المحلية في أسبوت، أ.ع، التي جمعت النساء وحولت التدريب إلى تعاونية تضم أكثر من ١٠٠ عاملة بدوام كامل في موسم حصاد الرمان، و٥٥ أخرى بدوام جزئي من المنزل.

أتاحت الجمعية لكل سيدة الحصول على سهم في المشروع، واستغل أ.ع شعار التمكين لجلب التويلات اللازمة لشراء الأدوات الخاصة بعمليات جمع وفرز وطبخ الرمان، ونجح في تجهيز غرفة كاملة كمعمل للدبس، و تروسيكل، وجرار، وماكينة عصر، لتسهيل العمل وزيادة الإنتاج. والنموذج الأخير هم الرجال من العمال، وهؤلاء تقابلهم ه وتعامل معهم يوميا في الموسم وغيره، ومن خلالهم تستطيع فهم معنى التمكين الشعبي للنساء.

يؤمن العمال الرجال أن العمل مقصور على جنسهم، كما تقول ه « ولما بيدشغل يجب يتخدم». ينقل العمال الرجال الرمان من الأراضي الزراعية إلى الجمعية أو إلى منازل العاملات بدوام جزئي، تقول ه: «الستات تيجي الجمعية تاخذ الجرار ببلاش، وتجب عامل ينقل معاها وتجب الرمان على الجمعيه أو في بيتها وتحوله لدبس وتاخذ فلوس على أد اتاجها».

تصف ه تعامل العمال الرجال مع الرمان المنقول: « يجوا يرموا الرمان على الباب ويمشوا». يمثل العمال الحلقة المفقودة في العملية الإنتاجية، فدورهم مطلوب ومهم مع نمو الطلب على دبس الرمان، والذي حول العمل البسيط إلى ما يشبه المصنع الصغير، وضاعف الحاجة إلى المجهود العضلي للإنتاج، إلا أن الأدوار الاجتماعية الجندرية تنص على أن معامل دبس الرمان «ديه شغلة ستات». فكان عزوف العمال عن العمل مع ه ، وما تصفه من إهمال من جانبهم في التعامل مع الرمان خلال نقله أمر حتمي، فأصبحت ه وزميلاتها يقمن بكل الأدوار.

المكينة

حينما بدأت رحلة تمكين نساء العونة، بدأت من منطلق أن الأدوات البدائية هي الحل لتوفير عمل للنساء، ولأنهن معتادات على سخونة المطبخ وأدواته، فكانت الأدوات التي يستخدمونها هي: «حلل، واپور، وخالط».

لاحقاً، ومع تطور الطلب على المنتج، دبس الرمان، دخلت المكينة حيز العمل في الوحدة، متمثلة في ماكينة العصر، إلا أنها شكلت تحدياً في استخدامها من قبل النساء. أدوات العمل البدائية مصممة للأصل للمطبخ، لا للنساء بالذات، لكنها معتادة من قبلهن بحكم دورهن الاجتماعي في مجتمعهن، ولكن حينما تم إدخال ماكينة للعمل، وصفتها ه بأنها «كبيرة وتخوف».

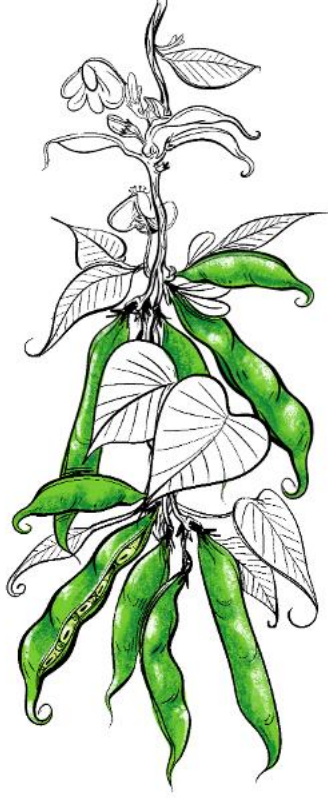
الماكينة المستجدة على عمل نساء العونة في إنتاج دبس الرمان، كما تصف إهام «محتاجة عامل متخصص، أخاف على أي بنت أو حتى أنا اشتغل عليها، ممكن تاكل إيد واحدة فينا». الماكينة في هذه الموقف تمثل نوع الأدوات التي يتم منحها للنساء تحت مظلة التمكين، والقدرة العضلية التي يجب أن تحلن بها لمواكبة العمل، عنف خفي يضع أحماله على أكفهن، عنف لا بد لهن أن يعايشنه في ظل واجباتها تجاه العمل والإنتاج، عنف يتمثل في أنها يجب ألا تمرض، أو تضعف، أو تموت. وبالطبع يجب ألا تشكي، حتى لا توصم بالضعف، وعدم القدرة على التحدي مثل الرجال. هذه الماكينة بالنسبة إلي، مثلت الأدوات الكبيرة والخفيفة التي يصنعها رجال، ليديرها رجال آخرون. هذه الرحلة، رحلة التمكين، بدأت بلجم نساء قرية العونة بيئة جميلة، نظيفة، متطورة، خضراء، كما تعلن وتعلننا جميعاً في المدارس، لكنه حلم اصطدم بحدود جنسهن، والدين، والتعليم، والمكان.

استطاعت بنات ونساء العونة أن يواجهن هذه الحدود في مقابل حلمهن، لكنهن انتبهن وحيدات أمام عجلة الإنتاج، عجلة فرضت عليهن من قبل منظمة العمل الدولية بهدف التمكين الاقتصادي، تمكينهم الذي يقاس بقدرتهن على التنافس في سوق عمل، مصمم بأولويات وأدوات ذكورية. نتاج هذا التمكين، وضع النساء الحلمات بترعة نظيفة يستطعن الاجتماع فيها مع أولادهن وحكاياتهن تحت ضغط وعنق اجتماعي واقتصادي يزيد من اعتمادهن على وظائفهم الموسمية غير الآمنة، مع بقاء الضغط المائل في أدوارهم الرعائية غير المدفوعة، كل هذا في مقابل أجور زهيدة.

وضع النموذج الحالي للتمكين الاقتصادي نساء العونة في وضع يمنعهن من التخلي عن موقعهم في الوحدة، خوفاً من خسارة رهان تم بيعه في الفصول التدريبية لتمكينهن، في ظل فتح هذا النموذج لباب فرصة دخول محتجتها، فصول تدريبية بدأت بشكواهن من رائحة وذباب يمنعهن من ممارسة حياتهن الريفية التي اعتدنّها، ورغبة من صاحبات الشهادات العليا في إيجاد وظائف تعكس قيمة ما لمشوارهن التعليمي، كإهام وصديقاتها العاملات في المصنع الصغير.

لم يكن يعلن أن قرية العونة هي جزء من نظام اقتصادى ضخم، جزء أصيل في معادلة ماذا نزرع؟ لمن؟ ومن يتحمل التكلفة؟ وأين موقعنا نحن النساء في هذه المنظومة؟، وكيف يتم الاستفادة منا؟

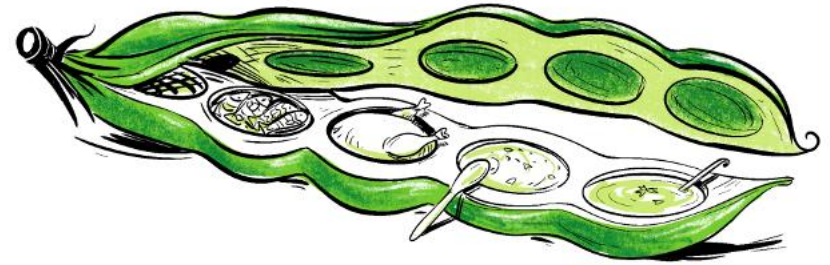
وأظن أنهم جميعا، نساء الجنوب، على اختلاف مواقعهن من العمل والنظام الاقتصادي، يمثلن ما تمثله نحن بنات القاهرة لنفس النظام، وقود للنويلبرالية، مورد اقتصادي يجمع بين العمل المأجور خارج المنزل والعمل غير المأجور داخله، ويجب استثماره. نساء العونة لهذا النظام مجرد أداة لتحسين مؤشرات النمو الاقتصادي، فالتمكن هنا، دعاية شكلية لخدمة النظام القائم وليس لتغييره. نظام يستغل طاقات النساء لتحسين مؤشرات النمو، دون منحهن سلطة حقيقية على حياتهن.



على السفرة

حكايات حول الغذاء والمناف من زاوية المائدة، العائلة، والفرد. كيف
تعكس ثقافتنا اليومية وعلاقات القوة تأثرنا بالتغيرات المناخية

الفصل الثالث



الاغتراب عن مائدة طعامي

منى محبوب

كانت الإسكندرية دائماً مساحة آمنة لروحي. مدينة لا تشبه غيرها، بطبيعتها المتقلبة ونسيمها الذي يحمل شيئاً من السكينة. كنت أجد فيها راحتي دون أي تكلف. ما يتبقى من مائدة البيت أضعه في علية وأتوجه به إلى البحر، أجلس على أحد الكراسي المجانية على الكورنيش، وأشعر بنسمات البحر تتغلغل في صدري، تمزج رائحة الملوحة برائحة الطماطم الناضجة في وجبتي، فيحدث تصالح غامض بيني وبين الحياة.

إلا أن هذا المشهد البسيط تغير. الكورنيش الذي كان امتداداً لهدوئي الداخلي أصبح مساحة مقيدة. لم يعد الجلوس عليه مجانياً كما كان؛ كل مقعد صار جزءاً من كافيته مغلق بسور زجاجي، وكأن الهواء نفسه لم يعد حقاً للجميع.

منطقة المنتزه، شرق مدينة الإسكندرية، كانت تفتح ذراعها للجميع بخمسة جنبات، صارت تفتحها بخمسين، والبحر الذي كان للجميع صار امتيازاً للقادرين. مدينة ساحلية، ولكن أهلها لا يتمتعون بهبة البحر، ولا بحقهم الطبيعي في الوصول إليه، حتى صوت الموج صار متقطعاً بين ضوضاء السيارات والموسيقى المرتفعة.

أكثر من منظر

مع الوقت، صرت أشعر أن المدينة نفسها تخنفتني، كأنها فقدت توازنها مع الطبيعة. ومع تغير المناخ، لم يعد الشتاء كما كان، ولا المطر في مواعيده. الرياح أصبحت أقسى، والشمس أكثر حدة، والمواسم تختلط على المزارعين كما تختلط على المدن.

الإسكندرية تعتمد على المدن الزراعية المجاورة لأنها بلا ظهير زراعي، ومع أزمات الريف أصبحت هي أول المتضررين. الأراضي الزراعية تقلصت، والمياه لم تعد تكفي، والفلاح الصغير أصبح عاجزاً بين أسعار الأسمدة وديون السوق. تزرع المحاصيل التصديرية بدلاً من محاصيل الغذاء الأساسية،

وتغادر الخضروات والفواكه الجيدة الموانئ قبل أن تصل إلى موائدنا. اختل التوازن بين ما ينتج وما يستهلك، فانعكس ذلك على ألوان المائدة وطعمها. الحق في الغذاء لم يعد مضموناً، لا من حيث الكمية ولا الجودة، والوجبة اليومية أصبحت معركة للبقاء أكثر منها مصدراً للراحة.

في بيتنا بالإسكندرية، كانت المائدة طقساً مقدساً. أمي كانت تطهو بحب، وأبي كان يرى في السلطة لوحة فنية؛ يقطع الخيار والطماطم كمن يرسم الحياة نفسها. لم نكن نعرف الطعام الجاهز إلا نادراً. "يعني سايبة الأكل النظيف ورايحة تاكلي من بره؟"



أكثر من منظر © منى محبوب

كانت كلمات والدتي دعوة ضمنية للعودة إلى البيت، إلى المذاق الحقيقي، لكنها كانت تعرف أن البيت تغير أيضاً. تقول إن الفواكه اختفت بسبب التصدير، والخضروات قلت بسبب ندرة الزراعة. لم تعد تشتري كميات كما في السابق، بل تختار القليل بحذر، كمن يدير معركة يومية ضد الغلاء. آخر مرة طلبت فيها لحم من الدليفري، سألتني عامل التوصيل: "بلدي ولا مجمدة؟ أصل الجزائر قفل ومفدش بلدي في السوق؟"

لم تكن المسألة مجرد اختيار، بل إعلاناً عن نهاية زمن الأكل البلدي، والطماطم الحقيقية، والسلطة التي كانت لوحة فنية. كأن غياب الجزائر القديم لم يكن فقداً لبائع فقط، بل فقداً للجزء من العلاقة الحميمة التي تربطنا بمصدر غذائنا. أصبح اللحم رقماً في تطبيق، لا قطعة تختار بالعين والحدس، ولا حواراً مع من يعرف شكل اللحم ورائحته وطزاجته.

الطماطم لم تعد حمراء

كل زيارة لي للإسكندرية منذ انتقالي تبدأ بنفس الحوار: "إنتي خاصة؟ وشك باهت! بتاكلي؟ خدي أكل معاكي."

أحمل عند عودتي القليل من طعام أمي، لكنني غالباً لا أجد له مكاناً في ثلاجة السكن. ثلاجة مزدحمة بثماني فتيات، كل واحدة تحتفظ بنصيبها في رف صغير. لم يعد هناك مكان للطعام الطازج، ولا للمذاق الذي يشبه البيت. كل شيء بدأ يفقد طعمه: الطماطم، الوقت، المدينة.

بعد وفاة أبي، لم يعد هناك من يقطع السلطة بالألوان، وأمّي صارت تشتكي من الأسعار والجودة. المائدة لم تعد تجمعنا، ولا المطبخ يشعل ذكريات الدفء كما كان. الطعام صار مرآة لفقدان أعظم. كلما أكلت طبقاً يشبه مائدة أبي، قل شعوري بالاعتراب الغدائي. وكلما ابتعدت عنها، ازداد البرد في معدتي، وفي قلبي أيضاً.

الغربة لم تعد فقط بين المدن، بل على المائدة أيضاً. في كل وجبة باردة، في خضار بلا لون، في طماطم فقدت حرمتها، أشعر أنني فقدت جزءاً من حقي في الحياة نفسها، الحق في الغذاء، والحق في الوصول إلى الطبيعة، والحق في الطمأنينة.

الطماطم لم تعد حمراء، لا لأن المزارع أخطأ في زراعتها، بل لأن الزمن نفسه تغير. صار الطعم مرّاً، والذكريات أكثر ملوحة من البحر الذي لم أعد أراه.

ثم جاءت التجربة الأشد قسوة: وجبة الشغل. في الجريدة التي أعمل بها، كانت الوجبة اليومية أشبه بعقاب روتيني. ربع فرخة لم تكتمل نضجها، صغيرة لدرجة لا تكفي طفلاً رضيعاً. خضار مالح كأنه أكل من قبل، أرز متحجر، وكل شيء بارد كقطع الثلج. الطعام يصل إلى المعدة يجرحها، ومذاقه يشبه العلبه البيضاء الصغيرة التي وضع فيها، بلا حياة، بلا طعم، بلا روح. كانت تلك الوجبة تعكس طبيعة العمل نفسه: بلا دفء، بلا رعاية، مجرد أداء لواجب.



كل ذلك تزامن مع تحولات داخلي، بدأت منذ انتقالي إلى القاهرة عام ٢٠١٢. البداية كانت مليئة بالاكتشاف والانبار، لكنها سرعان ما تحولت إلى توتر وفقدان توازن، خاصة في علاقتي بالطعام.

في القاهرة، في السكن المشترك، صار الطعام وسيلة للبقاء فقط. الطماطم فقدت لونها الأحمر الحقيقي، والخضار بلا رائحة، والفواكه تفقد نضجها قبل أوانه. حتى الماء له طعم غريب. كأن كل شيء فقد روحه. كنت أتناول الطعام بلا شغف، كأنني أؤدي واجباً يومياً بلا طعم ولا حميمية.

كيف سنأكل اليوم!

مرام محبوب محمد

صباح يوم جديد.

لقد غدوت أحب الصباح أكثر، أهذا بسبب غربة ليالي الحرب؟

أية حرب! فالحروب كثيرة!

حرب ١٥ أبريل ٢٠٢٣ بالسودان بين قوات الجيش وقوات الدعم السريع المنشقة عنها. هل هي

حرب مصير؟ لا. هي حرب موارد.

أهي حربي أم فرضت علي؟ أنا المواطنة العادية المسالمة، الطالبة الجامعية!

هل كنت سببا في الحرب بسبب توتري في السنة الأخيرة من الدراسة، ودعواتي المستمرة لإطالة

العطلة بين الفصلين الدراسيين، لا أدري، ولكن ها أنا حصلت بالفعل على عطلة تقارب السنتين.

اعتدت مؤخرا على الإجازات الطويلة، مع مرور السودان بسلسلة من الأحداث، مثل ثورة ديسمبر

عام ٢٠١٨، ثم الانقلاب العسكري عام ٢٠٢١، والآن الحرب.

اعتيادي عدم الاستقرار، جعلني لا أتعرف على الحرب الأخيرة ولا اعترف بها بسهولة، ظننت أنها

سنتني، ولكنها مستمرة داخلي وفي الخرطوم، حيث نشأت وعشت كل حياتي بحي الشجرة «يقال

إن أصل التسمية جاء من شجرة محوبك».

كنت أقيم بمنطقة الري المصري، وهو منطقة حكومية تقع في الطرف الغربي لحي الشجرة، قرب

السكة الحديد. هنا لا نطلق على الشوارع اسم عنابر: عنبر تلابيب، عنبر البوليس، عنبر الأساتذة،

منازلنا متاشبهة بمساحة ٢٠٠ متر، غرفتان وحمامان، ومطبخ، ومخزن، وحوش أمامي وخلفي.

باب شارعنا مطلي باللون الأخضر، عندما تفتحه تستقبلك القلط، وعلى يمينك حوض زراعة أمي

وشتلات صباح الخير التي كانت تهوى جمعها بألوانها المختلفة.

سوف آخذكن/م في هذه المقالة برحلة عبر ذاكرتي، في محاولة لتعريف الحرب والبقاء والنزوح والنجاة

بعد ثلاثة شهور في ظل حصار الشجرة.

يرقد حي الشجرة تحت حصار قوات الدعم السريع جنوبا وشمالاً وشرقاً، وحافة النيل الأبيض غرباً،

حصار بدأتها قوات الدعم مع اندلاع الحرب في أواخر رمضان، لوجود منشأتين عسكريتين تابعتين

للجيش السوداني في المنطقة، هما سلاح الذخيرة وسلاح المدرعات، وتسبب هذا الحصار في صعوبة

التنقل والنقل، وتبعاً لذلك تقلص حجم السوق وبدأت بعض السلع في الاختفاء من رفوف المحلات.

في البداية لم نلاحظ كأسر هذه التغيرات، بسبب وجود ما تبقى مستلزمات الشهر الفضيل في المنازل،

فقر الشهر الأول دون ظهور تغيرات ملحوظة.

لكن مع وقوع انفجار بمستودعات الشجرة للغاز الطبيعي، بسبب هجمات جوية، استمرت النيران

مشتعلة لأسابيع، وأصبح من الصعب الحصول على أسطوانات الغاز، مما زاد من صعوبة المهام اليومية

للنساء. بدأنا بالبحث عن بدائل الغاز، حطب، فحم، بابور جاز، وهنا تظهر المفارقة، ففي الوقت الذي

يسعى فيه العالم جاهداً لأخذ أنفاس نقيية، نعود نحن إلى عصر الطبخ ما قبل الغاز الطبيعي.

كما نملك أسطواناتي غاز قننا أنا وأمّي بملئهما عند سيدة في عنبر البوليس، لديها توكيل غاز. انتقلنا بعدها

لسؤال ماذا نطبخ؟ في ظل الغلاء المتزايد، وندرة الخضراوات وشبه انعدام الفواكه بسبب ظروف

الحصار.

أصبحنا أنا وأمّي نطبخ بالتناوب لأن إعياء أمّي يزداد يوما بعد يوم، بسبب الأيميا التي تعاني منها

نتيجة القصور الكلوي المزمن، مع الوقت صرت أطبخ وحدي. خياراتي محدودة، فهناك العدس،

البطاطس، السخينة، وأحيانا الأرز بالأندومي، والأخيرة كانت قد انعدمت إلا من دكان واحد كان

يملك مخزون منها.

أبي وأختي يحضران الأغراض من السوق وخالتي تنظف المنزل، و تناوب أنا وأختي وأخي على

مهمة إحضار الخبز، مع عودة أزمة الأفران والخبز، وتجدد منظر صفوف العيش. أمام المخازن، صف

للنساء وصف للرجال، والكثير من الأطفال بين الصفيين. الحجز، قوائم الأسماء، الشجارات، الونسات.

كم أحب ونسة صف العيش والصدقات العابرة، حيث تشارك النساء التفاصيل اليومية والهجوم

والأحلام، كما أن صف العيش صار مصدراً مهما للمعلومات، بعد انقطاع شبكة الإنترنت، إن كانت

المعلومات عملة نادرة مع الحصار، فنحن لا نعلم ما يحدث خارج الشجرة أما ما يحدث داخلها نعرفه

بعد أيام.

ولكن ماذا الآن؟

فعلنا كل ما بوسعنا، رضينا بالحد الأدنى من كل شيء، من الماء والغذاء وحتى العيد. أذكر جيداً حركة النزوح حولنا، جارائنا اللاتي حملن صغارهن ورحلن تبعاً، وآخرهن جاءتنا صباحاً، «يا ناس البيت كيف أصبحتم؟ يلا العفو والعافية، نحن قايمن الليلة»، ودعناها علامات بأنه لم يبق نساء غيرنا أنا وأمي وخالتي وأختي.

رحلت النساء أولاً، هل هن أكثر خوفاً؟ هل بسبب العبء النفسي والجسدي المضاعف؟ ربما، رحلن لأنهن يبحثن عن الحياة، لقد جبلن على ذلك، رحلن لأنهن الأقرب للموارد ولإدارتها، ولأن الإحساس بالخطر لديهن عالي، رحلن لأنهن من يتحملن مسؤولية هذه الندرة أكثر من الآخرين. بدأ قرار النزوح لاحقاً بالآخرين منطقياً، تمسكت أنا وأبي بالبقاء ودافعنا عنه أمام البقية، أملاً في نهاية لهذا الوضع، ولكن بعين النساء الخبيرة، بدأت أرى الحقيقة شيئاً فشيئاً، ولم يعد هناك أمل يلوح في الأفق.

بدأت أنسل من جانب أبي، يجب أن ننزع، تمسك أبي بقراره عدة أيام، لكنه اقتنع في النهاية، ليس بسبب إصرارنا وإلحاحنا جميعاً، بل لسببين: أولها ظهور هجمات المسيرات، وثانيها الأعمال الرعائية، فأبي لا يستطيع أن يصنع لنفسه كوباً من الشاي دون مساعدة نساء الدار.

أخذنا قرار النزوح بالإجماع في منتصف يوليو، حزمنا ما استطعنا ورحلنا. كان الطريق للمحطة أطول من المعتاد. أبي وأخي أمامي، أمي وخالتي خلفي، وأختي بجاني. أليس هذا المشهد الذي أراه في التلفاز، الجموع تسير تبعاً في شتى أنحاء الأرض المتزعزعة. إنه طريق الفراق، لكنه أيضاً طريقنا للبحث عن النجاة، لا ندرى هل سننجو أم لا؟ لكن المهم أننا معاً.

كانت قوات الجيش تقوم بعمليات تمشيط يومية في الأحياء، وتطلق أعيرة الرصاص في الجو، مع مرور الأيام قلت كميات الغذاء، وتقلص حجم مائدتنا وعدد الوجبات، وأصبح الإعياء بادياً علينا جميعاً، خاصة أمي.

وبسبب انقطاع الكهرباء، قل إمداد المياه، فصارت تصل إلى المنزل مرة كل ٤ - ٦ أيام، وظهرت عربات الكارو المخصصة لبيع المياه التي تجلبها من النيل، لكنها غير صالحة للشرب والاستخدام الآمن، إزاي هذا الوضع اضطر أخي إلى رحلة ملء جرادل المياه من أحد مصانع المنطقة الصناعية، الواقعة خلف عنابرنا.

عندما نسمع صوت هدير المياه من الصنوبر، تدب الحركة في المنزل ويتحول نخلية نحل، أبدأ بري حوض النباتات، ثم رش أرض الحوش الأمامي، وملء خزانات المياه (برملين، زيرين، وبعض الأواني)، ويستحم الجميع، يحدث كل ذلك سريعاً لأن الإمداد ينقطع بعد ساعة ونصف. نجلس في حر نهار يونيو، نلعب أنا وأختي وأختي لعبة «جوز ... جوز ... لوز»، عشرات الجولات يومياً، تستلقي حولنا القطط لاهية أحياناً ببعض القصص. كل منا يستبدل أصناف اللعبة بما تشتهيه نفسه فتحوّلت اللعبة إلى «بسوسة ... لازانيا ... بروست».

يأتي صوت خالتي توتو من خلفنا: «اللعبة دي جنتكم عديل، إنتو قايلينو بيحكم جد جد»، وتعالى الضحكات. لقد كانت أجواء اللعبة والونسة والعراك خلالها أهم متنفس في ذلك الحصار، هل يضيق الحصار المساحات والخيارات ويقرب القلوب؟ لا أدري!

مائدة طعام على شرف التخطيط العمراني لأحياء مدينتي

آلاء كليب

كل طبق على مائدة الطعام يحدثنا عن نفسه. إنه المفضل لشخص ما على طاولة الطعام، ربما لمذاقه، راحته، طريقة إعداده، أو حتى سعره الذي يتغير من منطقة جغرافية إلى أخرى. على طاولة طعامي بالتحديد، كل طبق تأثر بأصابع ورائحة امرأة مرت به وحملته من مكان إلى آخر.

أسرتي مكونة من أربع نساء يختلفن في الأعمار ومراحل التعليم، وأنا أصغرهن، توفي رب الأسرة عام ٢٠١٩، فكانت طاولة الطعام معبرة موازين القوى بين النساء الأربعة في تلك المرحلة من حياتي. سنتغير مكونات الطاولة مع انتقالنا الجماعي بحثاً عن مكاناً أكثر هدوءاً في المدينة، ومن ثم انتقالي الشخصي بهدف الاستقلال، لكن الهمة النسائية وتأثيرها ظلت عاملاً مشتركاً.

الطعام لا يرتبط فقط بالتغيرات في حياتي، لكنه مرتبط دائماً بالتغيرات من حولنا في العالم، كسياسات الأسعار والتغيرات المناخية والأوبئة وحركات المقاطعة التي ندافع بها عما تبقى لنا من حلم في تحرير فلسطين.

عمري ٣٠ عاماً، قضيت منها أربعة وعشرين في منطقة تميزت بأسواق متنوعة على بعد شارع واحد من المنزل، تنوع فيها الخضروات والفاكهة ومحلات البقالة، والجزارات، ومطاعم الأكل الشعبي التي تميز بعروض اشكال هندسية في ترتيب الطعام المجهز لجذب الانتباه خاصة يوم الجمعة نظراً للزحام الشديد. هنا يشابه الجيرانيات في عاداتهم تناول وجبة إفطار يوم الجمعة بعد الصلاة. نتصاعد صرخاتهم إلى بائعي الطعام الجاهز حتى يمكنهم الحصول على طلباتهم/ن أسرع.

تميزت تلك المنطقة بمبانيها المترامية بجوار بعضها البعض، ما مكنتني بسهولة من التعرف على تفاصيل المعيشة اليومية للجيران. الشوارع متفرعة من الطريق العام، تمر به العربات بسرعة تتوافق وطبيعة المنطقة السكنية. خلال الصيف، كانت الأسر تشغل المساحات المحدودة على الرصيف للجلوس أمام الأبواب يتبادلون الأحاديث والتميمة بينما يأكلون فاكهة موسمية اشتروها من السوق.

هذه المساحة هي أيضاً مكان مشاركة المواسم والأعياد الدينية، فأجد امي والجارات يتبادلن بعض الأطعمة المرتبطة بالأعياد، مثل الكعك والبسكويت في عيد الفطر والتمس والحلوى في أعياد شم النسيم وهكذا، كل هذه الأطعمة تعبر بين البيوت عبر صحن متنقل يعكس مقدار المودة والمحبة بين الجيران. في هذا الصحن أرى رحلة طعام الأسرة المتوسطة داخل مجتمعنا.

بعد وفاة الأب بعام، اتخذت الأسرة قرار الانتقال الجماعي، بلغت حينها الرابعة والعشرين من عمري، وورغبت نساء الأسرة في تجنب مضايقات التحرش والمشاحنات اليومية التي انتشرت بكثرة في السنوات الأخيرة. خلال بحث أسرتي عن منطقة عمرانية أكثر هدوءاً وأماناً، انتقل معنا الطعام ليعبر عن الطبيعة العمرانية الجديدة وعن ملامح الطبقة الاجتماعية، لم يكن حصولنا على طعامنا بنفس الطرق المتبعة خلال المنطقة العمرانية الأولى.

نحصل على الغذاء هنا عبر الهايبر ماركت، باختيارات محددة، وبجهود أكثر من السابق، احتاج أن أسير قرابة ١٥ دقيقة للوصول إليه أي فرع من فروع هايبر ماركت الصغيرة نسبياً، وإذا أردت الوصول إلى الفرع الرئيسي حيث الاختيارات أوسع، علي الاستعانة بالسيارة. اعتبر الطعام دائماً وسيلة لرحلة استكشافية كلما ذهبت إلى مدينة أو بلد مختلف. أنساء أغلب الأحيان حول تأثير الطبيعة العمرانية على سكانها، وكيف يكتسبون منها طبائعهم وكيف يتكيفون معها ويأثرون عليها، كذلك أنماط الطعام الخاصة بهم. ترتبط أنماط الطعام وطرق استهلاكه بالطبقة الاجتماعية، التغيرات المناخية، اختلاف الأجيال، بالوفرة والندرة، وبشكل اساسي ارى أن النساء هن مدخل فهم تلك التأثيرات على أنماط الطعام.

لذا، اعتبر أن سردي لرحلة انتقالي بين ٣ محطات، وتغيرات طاولة طعامي خلالها، وتأثرها بكل العوامل المرتبطة بالطبيعة العمرانية لتلك الأماكن، هو رصد لتأثر حركة الانتقالات الداخلية على أنماط الغذاء والحصول على الطعام، خاصة على النساء، من خلال التأمل الذاتي. أكشف من خلال التحليل والنقد، أنه وعلى الرغم من الاختلافات العمرية والتعليمية في أسرتي، إلا حركة الانتقال الداخلي أثرت على أنماط الغذاء وحصولنا على الغذاء بدرجات مختلفة، وساهم في ذلك التغير في الطبيعة العمرانية بين حركات الانتقال.

القراء/القارئات الأعزاء/العزيزات، أدعوكم/ن إلى طاولة طعامي التي عكست خارطة التغير العمراني على أسرتي، واختلاف الطبقة الاجتماعية، وأمل أن تجدوا طبقكم/ن المفضل على تلك الطاولة.

طاولة الطعام الأولى: فول محوج، طعمية سخنة، سلطة خضار، عيش مفتح

كان منزلنا يقع في شارع متفرع من الرئيسي بجواره تنوع الأسواق والمطاعم الشعبية لبيع الطعام الجاهز الذي يعتمد عليه سكان المنطقة، لا تحتل الطرق بين تلك الأسواق عبور السيارات ولكن المارين للتسوق فقط، تنوع الاختيارات في الأسواق حسب القدرة الشرائية للسكان، فأعرضه البائع يتنوع بين الصباح وبين الأقل جودة وسعراً، وكل يشتري حسب احتياجه وقدرته المادية.

ضيق الشوارع ينعكس على ضيق اختيارات الطعام، فالتاح هي المكونات الأساسية في المطبخ الشعبي المصري، لا مجال لوجود مكونات لمطبخ آخرى او اكالات غير معتادة.

شكلت أمي فهمي عن السوق اختيارات الطعام بشكل أساسي، بسبب مسؤوليتها كأمراة عن تقديم الرعاية والطهي، فهي بطبيعة الحال مسؤولة عن شراء وتحضير مكونات الطعام، وطهي ثلاث وجبات لأفراد الأسرة يومياً.

نقلت أمي عدة عادات للطعام من بيت أهلها، ما جعلها موروثاً متناقلاً بين نساء العائلة، ككوب الشاي بلبن الذي يعد إفطار ما قبل الذهاب إلى المدرسة، و«الرنجة» وسلطة الخضار والبطاطس كوجبة أساسية لأول أيام عيد الفطر وأول أيام شم النسيم، والكبد المشوي كإفطار أول أيام عيد الأضحى، تتشابه تلك الوجبات نوعاً ما مع طقوس الجيران في المنطقة.

رافقت أمي في مشوارها المتكرر للسوق، تعلمت منها تكوين علاقات اجتماعية مع البائعين والبائعات، خاصة البائعات، اللاتي يقطعن مسافات طويلة من الأقاليم والأرياف لبيع منتجات الألبان، ثم يعدن إلى ديارهن في نهاية النهار، ومنهن من يمتلكن مشروع عائلي صغير لبيع «الطعمية الساخنة».

لا أذكر أن امرأة غابت ولو ليوم واحد من أمام «طاسة الطعمية» على مدار عشرات السنوات زرت فيهم السوق. كانت الطعمية طبق الأساسي على مائدة الإفطار سكان المكان، يحصلون عليه بعد انتظار وسط زحام وتهافت الزبائن وتساعد سخونة الزيت أمام الباعة.

الزبائن منقسمون إلى «طابور للرجالة» و«طابور للحريم»، ذلك التجمع يمكنه أن يعكس أولويات نساء ورجال الحي المقسمة في معظم الأحيان بتقسيم الدور الجندري، فالرجال دائماً يطالبون بالأولوية في تلبية طلباتهم حتى لا يتأخرون عن مواعيد عملهم، والنساء يطالبن بها حتى لا يتأخرن على صغارهن في البيت.

كانت أسرتي مثل غيرها من الجيران تعتمد على الخبز المدعوم من قبل الدولة. وكانت الأسواق بها العديد من منافذ بيعه، ومن خلالها يمكن أن ترى انعكاس تداعيات أزمة الأسعار وتوافر السلع. بدأت أسعار معظم السلع الغذائية الرئيسية في العالم في الارتفاع في النصف الثاني من ٢٠٠٦، وبحلول النصف الأول من عام ٢٠٠٨، وصلت الأسعار الدولية (بالدولار الأمريكي) للخبز إلى أعلى مستوياتها منذ ما يقارب ٣٠ عاماً، كان لذلك تداعيات على الأمن الغذائي وتوافر السلع الأساسية ومنها الخبز².

تأثر أسر الطبقة المتوسطة بطبيعة الحال بكافة الأزمات والتغيرات، ظهر ذلك في طوابير العيش. يمكن أن يتجاوز وقت انتظارك ساعتين أو ثلاث ساعات وأكثر حتى تحصل على حصتك من العيش، في الوقت ذاته، تستطيع رؤية أكوام الخبز تخرج من الباب الخلفي للأفران لتباع بشكل غير قانوني للمطاعم بسعر العيش الغير مدعم.

كانت الأخبار تنقل العديد من حوادث إصابات وحالات وفيات بسبب الزحام والضغط أمام أفران العيش. وأمي كانت المسؤولة عن خوض هذه المعركة فجراً، مرتين أسبوعياً، بالإضافة إلى كونها نافذة موارد الطعام للأسرة.

وعلى الرغم من سؤالها اليومي المتكرر « هتتغدوا ايه النهاردة؟»، إلا أنها كانت تضع على المائدة ما يتناسب مع المتاح في المنزل، وما استطاعت أن تجلبه معها من السوق توافقاً مع الخطة المالية للبيت، كما كانت تقول: أنا كنت باخذ رأيكم، وبعد كده بعمل اللي على مزاجي أنا، هو لسه هستنى مزاج حد».

تداخل هذه العوامل جعلني أنظر إلى تقديم الغذاء على مائدة أسرتي كنوع من المقاومة تارة، والمهادنة تارة أخرى، عندما تكون النساء هي المسؤولة الأولى عن الرعاية من خلال الطهي والتغذية.

2 Samah Sayed Ahmed, The Impact of Food and Global Economic Crises (٢٠٠٨) on Food Security in Egypt, Department of Politics and Economics, Institute of African Research and Studies, Cairo University, Egypt, 2014. https://scholar.cu.edu.eg/sites/default/files/samahelmorsy/files/egyptian_food_security.pdf

وقدرات الأسرة المادية، كان ذلك مدخلاً لصوتي ورأيي فيما يوضع على مائدة الطعام.

كنت أراقب باستمرار استجابة الخضروات والفاكهة لارتفاع الأسعار بشكل يومي، وخاصة بعد قراري بالاعتماد على سوق شعبي آخر، كبديل لفرع الهايبر ماركت البعيد، الذي يعرض على رواده منتجات مغرية لكنها لا تمثل التنوع الذي يراعي قدراتهم الاقتصادية ورغباتهم المتنوعة، حتى أنني فكرت للحظة أن كل من في المنطقة يتناولون وجباتهم في نفس الساعة بنفس أنواع الاطباق.

في منزلنا الأول كانت تراص المباني يقضي على جزء كبير من الخصوصية، لكنه يسمح بتكوين العلاقات الاجتماعية بين الجيران، علاقات كانت تترجم في عادات ومناسبات تبادل الطعام وتبادلها بينهم. إلا أن انتقالنا للمكان الجديد، أتى على تلك المساحة لتكوين علاقات اجتماعية مع الآخرين، كل أسرة صارت تستمتع بما تملك أمامها من مساحات خضراء، ولم يعودوا بحاجة لمشاركة مساحاتهم المفتوحة مع أحد.

طاولة الطعام الثالثة:

مائدة بدائل المنتجات المقاطعة

اتخذت قرار بالانتقال للعيش وحدي إلى منطقة جغرافية جديدة، تجمع خصائص متنوعة بين منزلي الأول والثاني، بها أسواق شعبية، ولكنها في مكان مخصص لها، عمارات متلاصقة، ولكنها لا تفرض بالضرورة تكوين علاقات اجتماعية بين السكان مثلها كان الحال في منطقتنا الأولى.

يصعب تحليل أنماط الطعام بسكانها في منطقة مماثلة، حيث تنوع اختيارات المطاعم الجاهزة يختلف الأسعار، وتوجد الأسواق ذات الاختيارات المتعددة التي تناسب أذواق وجيوب العديد من السكان، كما يتوفر مجموعة متنوعة من الهايبر ماركت لمن يرغب، تنوع يرضى جميع الأذواق والقدرات المادية.

لكني لست وليدة اللحظة التي أعيش فيها في هذا المكان، فأنا أحمل معي عاداتي الغذائية وأنماط طعامي إلى اعتدت عليها، وإن كانت مرتبطة بنظام أسرة. انتقل معي جزء من عادات أسرتي الغذائية

لذلك اشتبك مع طرح الباحثة «أليس ماكلين» عن منظورها أن كان النساء مجرد حارسات لأبواب التكوين الغذائي أن واجبات الأسرة ذكورية بشكل عام، إلا أن النساء تجد طرق للمقاومة الهادئة حتى لو بشكل غير معلن، ليس لتستطيع أن تتماشى مع معايير الأدوار الاجتماعية، ولكن لتجدن فيه أنفسهن بشكل مرضي.

علي جانب آخر، جعلني هذا الإدراك أقاوم الدور الاجتماعي الذي تتخذه والدتي، وقد يكون هذا سبباً لعدم انخراطي إلى الآن لمنظومة الزواج وبناء أسرة، وبالتالي فإن الملاحظات التي خرجت بها من علاقات القوي المرتبطة بمائتي من تلك الفترة، تعتمد بشكل أساسي على معتقدات وأفكار اعتنقها، لكنها لم تختبر.

طاولة الطعام الثانية:

بيكاتا بالمشروم، أرز بالشعرية

مرت طاولة طعامي بتغيرات نتيجة انتقال أسرتي إلى منطقة جغرافية مختلفة، تبعد جغرافياً عن منزلنا الأول قرابة ٥٠ كيلو متر. المنطقة مسورة بالكامل، مقسمة إلى مناطق أصغر، كل منطقة تضم فرعاً من هايبر ماركت^٣، توجد به العديد من الاختيارات تشترك جميعها في أنها سلع يختارها لك صاحب الهايبر ماركت، الأسعار هنا لا تتأثر بشكل مباشر بتغيرات العرض والطلب كما في السوق المحاذي لبيتنا القديم، لكن السعر لا يعبر فقط عن ثمن السلعة، لكن يضاف إليها تكلفة المكيف داخل المحل، والتغليف المتميز والعمالة التي يشغلها المكان، والبراند الخاصة به، بالإضافة إلى خدمة التوصيل إلى المنزل، إذا رغبت في التحلل من مشوار الذهاب والإياب.

صارت مائدة طعامنا أكثر إغراءً، وأعلى تكلفة، توهنا وجود البدائل التي قد تناسب مختلف القدرة المادية. ضمت مائدتنا طعاماً جاهزاً أغلب الوقت، بدافع الإغراء الذي يخلق افتتاح مطعم جديد، بأصناف متنوعة، من بلدان متنوعة أيضاً كل شهر، يأخذنا الاغراء إلى تجربته تارة، ويأخذنا الفضول تارة أخرى إلى شراء مكونات اعداد إحدى تلك الوصفات في المنزل.

تمازلت أُمي شيئاً فشيئاً على أن تكون هي نافذة الأسرة الوحيدة إلى الطعام، وبدأ أنا بتسلم هذا الدور تدريجياً، على الأقل في مهام ك شراء مكونات الطعام، كان علي إيجاد بدائل تناسب مع اختيارات

٣ الهايبرماركت: متجر تجزئة ضخم يجمع بين مميزات السوبرماركت والمتجر العام، ويعرض تشكيلة واسعة من السلع تشمل المواد الغذائية، والمنتجات المنزلية، والأجهزة الكهربائية، والملابس، وغيرها من الاحتياجات اليومية، في مساحة واحدة. عادة ما تمتلك سلسلة تجارية لها عدة فروع في مناطق مختلفة، وقد تُوجه عروضها لفتات اقتصادية محددة تبعاً لنوعية السلع ومستوى أسعارها وطبيعتها وتصميم المتجر

ودخلت مرحلة جديدة من الاعتماد على نفسي من طرف، وأن أجد وسيلة للتناجح مع عادات صديقاتي اللاتي اسكن معهن، وإن لم تكن مختلفات بقدر كبير، لينتج ديناميكيات جديدة مرتبطة بالطعام.

تأثرت أنماط الطعام داخل المنزل الجديد بعد حرب غزة (أكتوبر ٢٠٢٣)، استجابة لحركة المقاطعة للمنتجات والشركات الداعمة لكيان الاحتلال، أثر ذلك على البحث عن بدائل متنوعة لأغلب المنتجات الغذائية والمشروبات التي كنا نعتمد عليها بشكل يومي والطعام الجاهز، وخاصة مع ظروف عمل والتزامات لم تعط مساحة واسعة من الاعتماد على الاكل المطهو داخل المنزل.

اعتمدنا بشكل كبير على تطبيقات توصيل الطعام، في تضيحية تتضمن أحياناً جودة أقل، وسعراً أعلى، مقابل مساحة أكبر من الوقت لإنجاز بعض مهام العمل أو الأعمال المنزلية، أثر ذلك على الحفاظ على نمط معين للطعام، فالاعتماد على الخيارات السهلة والمتاحة هو السبيل لمعظم الوقت.

أخذنا قرار أن تكون هيكلية البيت أشبه بالأسرة الصغيرة التي يُعاد فيها تكوين الأدوار الاجتماعية بعيداً عن الاعتماد على الأدوار الجندرية، وإنما يعتمد على قدرتنا وتفضيلتنا كأفراد على أداء الأدوار داخل المنزل بجانب ما يتطلبه المنزل من واجبات ليكون مريح لنا. تتشابه أنا وصديقاتي بمحد كبير في خلفياتنا على مستوى المعتقدات والإيمانات بالمبادئ والأفكار، اتفقنا بشكل جماعي وعلني بعد اندلاع حرب غزة أن سيكون طريق مقاومتنا هو المقاطعة، كما نذكر بعضنا عن المنتجات والعلامات التجارية المقاطعة حتى لا تسيطر علينا طبيعة الاستهلاك واغراءاته المستمرة.

تنوعت اتجاهتنا في البداية عن طريق للمقاطعة سوف نتخذ، بدأنا بالعلامات التجارية الأوسع انتشاراً ثم اعتمادنا على الأخبار من المنصات المستقلة المؤيدة للقضية عن الاعلان للمنتجات والعلامات التجارية المقاطعة، ثم اعتمادنا مؤقتاً على التطبيقات التي تكشف ما ينتمي للمقاطعة وما يدعم الكيان من خلال الكشف على «QRcode» حتى اعتدنا مع الوقت على استبدال المنتجات التي اعتدنا عليها بمنتجات لا تدعم الكيان بالحفاظ على شكل نمط الحياة المناسبة لنا، وكأن الأمر أشبه بالتحدي على المستوى الشخصي. تحدي للعجلة الاستهلاكية، تحدي لما يفرضه علينا الكيان واتباعه وكأننا من دونه لا نستطيع العيش ولا نستطيع الأكل ولا الشرب ولا النوم ولا التواصل. جمعت المنطقة السكنية الجديدة خصائص من المنطقة الأولى والثانية، فكانت الأسواق متنوعة متجمعة

في مكان سكني محدد تمثل طبقات اقتصادية مختلفة، تبعد عن المنزل قرابة العشر دقائق، تنوع منافذ الحصول على الطعام سواء من البائع/ات في الشوارع في السوق أو من الهايبر الذي لا يختلف عن القديم ولكنه مصمم أكثر للطبقة الوسطى والطبقة العليا من الطبقة الوسطى. لا يستطيع تحديد إن كانت منافذ البيع تأخذ في الاعتبار حركة المقاطعة أم لا، فيمكن أن أجد في ذلك الرف منتج يدعم الكيان بمحاذاة المنتج البديل له، وإن لم أجده في ذلك الهايبر يمكن أن أجده في المجاور له، وكان هذا من أهم ما يميز طبيعة هذه المنطقة العمرانية.

من خلال رحلتي الانتقالية بين مناطق عمرانية مختلفة، حصلت على الطعام بطرق مختلفة، وتعرفت على مكوناته في منافذ بيع متنوعة. شكل الطعام ديناميكيات مختلفة داخل أسرة كلما انتقلنا إلى منطقة جديدة. كانت الأم المتحكم الأساسي في أنماط الطعام عندما كانت هي الأقرب لمكان السوق الشعبية فألقي كل عبء رعاية الطهي عليها، وجعلها تكون علاقات امتدت لعشرات السنوات مع الفلاحات البائعات وتكون حلقة وصل المجتمع الصغير «الأسرة» بسؤالها اليومي «تغدوا إيه النهاردة؟».

تفرض المنطقة الجغرافية أيضاً اختيارات على مائدة الطعام وتحدد أحياناً جودتها وسعرها وطرق طهيها، وأحياناً أخرى تفرض نظاماً مختلفاً من شكل الأسواق أماكن البيع، إما أن تعطي مساحة لمنتجات بشكلها المميز في التغليف وإتاحة الخضروات والفاكهة في موسمها وغير موسمها، أو تحت سيطرة نساء من القرى يجلسن على مساحة من الأرض لبيع منتجات زرعهن وزرع أسرهن. تعكس صورة مائدة الطعام صوت ومساحة كل فرد داخل الأسرة، تمكنت من إيجاد موطن قدم لي على مائدة الطعام حين سنحت لي الفرصة لأن أفرض صوتي من خلال المساهمة المادية والجسدية في شراء احتياجاتنا اليومية من الطعام بعد انتقالنا الثاني.

وفرض ارتفاع أسعار الخضروات والفاكهة، نتيجة ضريبة غير مرئية للانتقال إلى منطقة عمرانية جديدة يفترض أنها أكثر «ارتقاءً» البحث عن بدائل، حتى وإن كانت هذه البدائل تبعد عن المنزل قرابة الساعة والنصف.

وجدت نفسي أتجنب «الهايبر ماركت» القريب الذي يُغري سكان المنطقة بمنتجاته اللامعة والمختارة بعناية توحد أذواق السكان، فقد كنت ألاحظ كيف يشتري الزبائن نفس العلامات التجارية تقريباً، وكأن كل من في الحي يتناولون طعامهم في نفس التوقيت، ويأكلون ذات الأطباق. هل فكرت يوماً في تفسير خريطة طاولة الطعام أمامك؟

في الختام شكراً

يتقدّم فريق عمل الورشة: إيمان عماد الدين، رجائي موسى، نوران المرصفي، وهند سالم، بخالص الشكر والتقدير لكل من ساهم في إنجاح هذه التجربة وإثرائها. ونخص بالشكر صفاء يوسف ونرمين مجدي على التنسيق والمتابعة الدؤوبة، والعمل على إخراج الورشة في أحسن صورة.

كما نشكر دار «هنّ» على توفير المكان، وما قدّمته من خبرة ورعاية. ونشكر إلهام على مساعدتها لنا خلال الورشة، وندى محمد وماجد مكرم على جهودهما في التصوير وتسجيل الجلسات، بما ساعد المشاركات على الوصول إلى المعلومات.

ونتوجّه بخالص الشكر إلى مؤسسة «جرينيش»، وخصوصاً محمد كمال، وإلى مؤسسة فيريديش إيبرت على دعمهما، إذ أقيمت هذه الورشة بالشراكة بين المؤسستين وبالتعاون مع دار «هنّ» خلال الفترة من ديسمبر ٢٠٢٤ حتى يوليو ٢٠٢٥.

ونخصّ بالشكر الخبراء الذين أثروا الورشة بخبراتهم: الدكتورة فاطمة أحمد، المحررة هاجر هشام، الباحثة ياسمين حسين، والدكتورة ياسمين معتر. كما نشكر المشاركات: آلاء كليب، إيمان عماد الدين، جنة عادل، حنين شاهين، رانيا الصاوي، رنا هاني، سارة الغباشي، مرام محبوب، مروة ممدوح، منة الله صلاح، منى محبوب، على ثقتهن ومساهمتهن القيمة في إنتاج هذه النصوص. والمشاركات اللاتي لم يستطعن إنتاج النصوص.

ونثمن جهود الفنان محمود رفعت في الرسم والإخراج الفني للكّتاب، الذي أضفى حياةً وجمالاً على صفحات هذه التجربة.

كما نخصّ بالشكر جميع النساء اللاتي شاركننا حكاياتهن لنخرج بهذا العمل، ولكل روح جعلت من الورشة مساحة للإبداع، والمشاركة، والمعرفة.

ثروة مناخية

دائماً ما يُنظر إلى حديث النساء بوصفه ثروة: كلام طويل بلا جدوى، لا يستحق التدوين أو الإصغاء. لكن ما يسمى بالثروة هو في الحقيقة مساحة يومية تنتج فيها معرفة جماعية، ويتشكل عبرها وعي مشترك بالحياة وتغرياتها. في هذه الأحاديث الصغيرة تختبئ الثقافة، وتظهر أشكال هادئة من المقاومة.

في المقابل، تُقدّم التغيرات المناخية غالباً كقضية علمية بعيدة، كأنها تحدث في أماكن نائية لا في حياتنا اليومية. لكن العدالة المناخية ليست مفهوماً مجرداً؛ بل خبرة تعاش في التفاصيل: في ماءٍ يقلّ أو يتغير طعمه، في غذاءٍ يعاد التفكير فيه، وفي نزوج يفرض نفسه على الحياة. هنا تصبح الثروة مادة للمعرفة. فالحكايات التي تبدأ وقت العصر لا تنتهي، لأن النساء يتداولنها ويعيدن روايتها. ومن خلالها نفهم المناخ لا كعلم بعيد، بل كحياة تعاش. فالثروة النسوية ليست هامشاً... بل بداية الحكاية.

نسخة مجانية ليست للبيع